ما القدر؟

بحث في القدر والقضاء وإرادة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحیم

ما القدر؟

بحث في القدر والقضاء وإرادة الإنسان

تأليف

محمد قرقنجي

ترجمة

عوني عمر لطفي اوغلو

مُقَدِّمَة

ما أكثر الذين يظنون أن هناك مسائل فكرية يحرم الإقتراب من حدودها ، كي لا يمسهم لهيبها ...

وقد يتمادى بعض هؤلاء في ظنونهم فيتوهمون أن مثل تلك المسائل معضلات لا حلَّ لها ... فيَظَل في نفوسهم شيء من الرهبة ، وشيء من الوساوس ، وشيء من الإحساس بالانهزام.

ولو تذكَّر هؤلاء ، أن البناء الشامخ من التراث الفكري - الذي خلفه لنا علماؤنا العظام - لا يمكن ان يقوم ، ثم يثبت بنيانه أمام الأعاصير الهوجاء في كل العصور ، وفيه أساس هش ، أو ثغرة غير سليمة .. لو تذكروا ذلك واستحضروه .. لسكنت نفوسهم واطمأنت ، ولعلموا أنَّ أي خطر يمكن تصوره ليس في الموضوع الذي يخشون الإقتراب من شدوده .. بل في مشقة الوصول الى الابحاث في ذلك التراث الفكري، أو في عسر تناولها وصعوبة فهمها .

فما من مسألة إيمانية إلاّ قد اشبعت بحثاً ودرساً .. ولا خلل إلاّ في الوصول الى البحث أو تسهيل عرضه .

ولعل «القَدَر والقضاء» ، من اعقد المسائل في علم الكلام .. وما أكثر الأسئلة المثارة في هذه الساحة !!

ما القَدَر ؟.. وكيف هو عادل ؟

هل القَدَر والقضاء بلاء مخيف ومصيبة نازلة، أم يد رحيمة لتعريف الكون ؟

هل لنا دور في إختيار الخير أو الشر.. والهدى أو الضلال ؟ وما مسؤوليتنا ؟

وكيف يكتب الخير أو الشر منذ الأزل ثم نتاب بالجنة أو نعاقب بجهنم ؟

ما موقفنا من الأسباب الظاهرة في تحديد الأجل والرزق رغم انهما مكتوبان ؟

بل لماذا السعي والجهد إن كان كل شيء مكتوباً منذ الازل ؟

وما مسؤولية القاتل أو السارق في الجريمة، رغم ان أجل المقتول أو رزق المسروق مكتوب منذ الازل ؟

هذا الكتاب ليس جواباً على مثل هذه الأسئلة فقط .. بل هو دليل الى فهم أشمل للقدر والقضاء.. فهم واقعي يجعله شاملاً لأعمال البشر كافة وحوادث الكون كلها.. باسلوب سهل يتعامل مع مختلف المستويات الثقافية، مع المحافظة على المستوى الفكري الرفيع الذي هو سمة هذا الموضوع ، لحساسية مسائله وتعلقه بالإيمان والحياة.. حتى اهتم به العالم المختص أو المثقف كما اهتم به عامة الناس .. في الماضي والحاضر.

ولا نبالغ اذا ما قلنا ان هذا الكتاب بحث حيوي لا يستغنى عنه في موضوعه . والى الله قصد السبيل.

المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

عندما ترد كلمة «القَدَر» فان أول ما يتبادر الى الذهن هو مصدره الفعلي قدر ، ومنها المقدار ، أو كل شيء بميزان "[1].

إنَّ جمال كل الأشياء وكمالها يستند الى التوازن. فمثلا جمال لباس معين ، حاصل من تفصيل وخياطة الخياط له حسب تقديره وقياساته ، فيلحظ الإنسان بعقله التقدير والميزان وراء النظام والتناسق في ذلك اللباس .

لنغض النظر عن اللباس ، ولنحول النظر الى الإنسان الذي يرتديه. إنَّ تركيب أعضائه على أحسن وأنسب شكل وبالمقدار والحجم

---

[1] القدر كما جاء في المعجم الوسيط(١/ ٧٢٥) : مقدار الشيء وحالاته المقدرة له . وفي التنزيل: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}(القمر:٤٩) . ووقت الشيء أو مكانه المقدر له. وفعله (قدر) و(قدر الشيء): بيّن مقداره. و(قدر الشيء بالشيء): قاسه به وجعله على مقداره .

الضروري ، يدلنا على تقدير ومخطط وبرنامج . وكما في اللباس الذي ضربناه مثلاً ، فان الوجود المادي للإنسان لم يحصل على شكله وجماله بذاته ، بل وفق مخطط وبرنامج ، أي خُلِق بتقدير إلهي .

ومن ناحية أخرى : لو نظرنا الى كتاب ما ، لادركنا انه مؤلف لغاية معينة ، وان فصوله وفقراته وجمله ، بل حتى كلماته وحروفه ، كلها موجهة الى تلك الغاية . فالعلاقة بين الفصول ، وما يشغله كل فصل من حيز في الكتاب حسب أهميته قد قدر في ذهن المؤلف وخطط له ثم بعد ذلك كتب وفقاً لذلك التقدير

هذا الكون أيضاً كتاب مؤلف بقلم القدرة الالهية . الذرات في حكم الحبر لهذا الكتاب . وكما تمنع القوالب المادية المستعملة في البناء من تسرب السمنت المصبوب فيها ، فان قوالب القَدَر المجردة (المعنوية أو غير المادية) تحدد المادة والأشياء في العالم وتصبها في أنفع وضع .

لنحاول توضيح هذه الحقيقة بالصورة الآتية :

إن القلم الذي في اليد والحبر الذي فيه ينتظر توجيه الأمر ، لتنساب من سنه الكلمة التي نريد ان تكتبها . فلو أردنا ان نكتب كلمة « فاكهة» مثلاً فان صور الحروف واصطفافها ونجومها تتشكل بالطريقة التي نقدرها .. وبما ان الحبر (المعدوم من الاحساس) والقلم (المعدوم من

الإرادة) ليسا من كتب الكلمة ، فالعاقل يدرك بسهولة ان الحبر قد انساب وفق برنامج مثبت في ذهن معين.

وكما ان برنامجا ومخططا عقليا هو الأساس في كتابة كلمة الفاكهة الحقيقة . وقياساً على هذا فان كل انسان وحيوان وشجرة وكوكب وجبل .. كلمة للقدرة ، كتبت وخلقت وفق برنامج القَدَر.

مثل آخر : للنتصور لوحة زيتية تمثل الربيع . جمال اللوحة قد تولد بتقدير وتنظيم رسام . هذا الرسام خطط في ذهنه أولاً كل ما سيثبته في اللوحة ، شكله ، وحجمه ، ولونه ، ومكانه ، بعد ذلك حرك فرشاته ورسم اللوحة .

هكذا الكون .. لوحة باهرة ، زاهية الألوان ، مرسومة بقلم القدرة ، غير انها لوحة حية ، شمسها تضيء ، واشجارها تمنح الثمار المغذية ، وغيومها تمطر ، وانسانها يفكر ويتكلم ويمشي ، وأغنامها تدر الحليب ، وترابها تنبثق منه الحياة . فالإنسان الذي يدرك بعقله - حينما ينظر الى تلك اللوحة الميته بكل ما فيها - علم وتقدير الرسام ، وان هذا العلم سابق للرسم ، لا بد له من الادراك ايضا ، حينما ينظر الى اللوحة المليئة بالحياة ، أن خلقها جرى وفق برنامج التقديرات الالهية ، أي بالقَدَر الالهي.

إذن ، كل من يتأمل الحقائق المتجلية في الكون ، كالابداع والعلم والحكمة والرحمة ، يؤمن ان هذه الحقائق تستند الى القَدَر الالهي والبرنامج الرباني. والذي يؤمن بالقَدَر يجب ان يثق به ويبحث عن جواب ما يخطر على باله من تساؤلات في هذا الموضوع ، بغير تجاوز حدوده وغير ناسٍ انه عبد لله تعالى. ومن لا يؤمن بالله تعالى - مبدع الكائنات - فليس له ان يبحث أو يناقش في القَدَر ، اذ لا يؤمن بعلم الله وتقديره من لا يؤمن به تعالى ... فماذا سيقول في موضوع القَدَر ؟ وما الذي سيناقشه ؟

سنتناول في هذا الكتاب أولاً ، بفضل الله وإحسانه ، تقديره لكل شيء بأحسن وجه ، وايضاح عدل القَدَر الالهي دائماً وابداً ، وسنحاول الاجابة عن سؤالين ملحين في هذا الموضوع ، ثم نعرض المذاهب الحقة الصائبة فيما يتعلق بأفعال العباد مقارنة بالآراء الباطلة ، ثم نختم الكتاب بايضاح مسائل تتعلق بالقَدَر.

القَدَر كله لطف وحسن

هيأ الله تعالى لكل حي كل ما يلزمه لإدامة حياته في هذه الدنيا على أحسن وجه وأكمل صورة . فمثلا : خلق الأسماك مانحاً اياها هيئة ومهارة تمكنها من السباحة بسهولة ، ومن ضمان رزقها بيسر، ومن حماية نفسها من الاعداء ، واهباً البحار والأنهار هدية لها ومأوى .

لو تصورنا أن السمكة ذات إرادة واختيار حر ... لوجب عليها الركوع بحب وتقدير أمام مقدرات الله تعالى الزاخرة بالحكمة والرحمة، اذ جعلتها تلائم البحر ويلائمها ، ووجب عليها ـ أيضاً – العيش ضمن الحدود والشروط التي وضعها الرحمن الرحيم. فلو تصرفت هذه السمكة خلاف ذلك ، فمالت الى اقتحام عالم الهواء المحظور عليها ، وجنحت الى الساحل تحقيقاً لهواها ، فانها تكون قد جلبت على نفسها المصير المؤلم والعاقبة الوخيمة . أيحق لها ان تسأل في تلك الساعة ، حين اضطرابها في سكرات الموت : (لماذا سمح الله لي بالخروج الى البر وقدر عليَّ الموت بهذه الصورة) ؟ كلا.. بلاشك ! لان الرب الحكيم الذي نظم بحكمته ورحمته شكل بدنها، ومواقع وحجوم أعضائها ، وعلاقة روحها بجسمها ، قد حدد بالحكمة نفسها للبحر حدوداً ، وامرها بعدم مغادرة الماء . ومن يخالف الأمر يعاقب !

هذا القانون الإلهي نافذ في كل الأحياء ، فالله سبحانه وتعالى الذي يديم حياة السمكة في الماء ويسهل عومها ، قد خلق الحمام أيضاً على هيئة تسهل طيرانه في جو السماء. فالاجنحة والأرجل تعتبر زيادة وعبثاً على السمك ، لكنها من ضرورات الحياة للحمام . والله سبحانه الذي قيد طيران الدجاج فجعلها صديقة نوعا ما للإنسان ، قد أكمل النقص الحاصل في طيرانها برأفة الإنسان بها .

وعلى هذا الغرار خلق الحكيم الكريم الذئب بهيئة يسهل عليه الانقضاض على صيده وافتراسه ، وجعل الخراف بألفتها عوناً للإنسان، والكلب ـ وهو من فصيلة الذئاب – حارساً للخراف وخادماً للبشر.

وهكذا بالنسبة لجميع الاحياء ، فقد أعدت ضرورات الحياة لها بغير إرادة منها ، ووفق برنامج القَدَر الذي خطه الله لها .

إنَّ الرحمة والحكمة تتجليان أكثر ما تتجليان في الإنسان من بين المخلوقات. هــذه الدنيا العظيمة بمجامعها خُلقت ساحة يمكن للإنسان الاستفادة منها. الهواء يصفي دمه بغير ارهاق ، والشمس تداعبه باشعتها ، والضأن تقف على بابه ولسان حاله يقول : « ان شئت فاذبحني وكلني، وان شئت فاسمح لي ان أرعى في الجبل والسهل متمسحاً في التراب فأمسي اليك واسقيك لبني ، ، والارض تسيح به

حول الشمس بغير ان تشعره أو تؤلمه قط ، والدواب (كالخيول والجمال) تنتظر دورها لتحمله على ظهورها وتحمل أثقاله . الى جانب هذه النعم التي لا تحصى والمسرعة لنجدته في بيئته ، يجني الإنسان ثمار ما ينتجه بنو نوعه بعلومهم ومعارفهم ، لكونه بطبيعة خلقه ذا مواهب ملائمة لاستيعاب مختلف العلوم والمعارف . أي ان الخالق الكريم الذي احسن الى النحل بقابلية صنع العسل ، والى الشجر بقابلية تكوين الثمرات ، جعل قابليات الإنسان لأنعم الحضارة وخيراتها . وكما أن هذه القابليات إكرام من الله ، فان العلوم وثمارها ايضا من احسانه اليه .

وما أروع هذه العبارات البراقة اذ تصور هذا الاحسان ! «هذه المنزلة والسلطنة الإنسانية، والإرتقاءات البشرية، والمعارف الحضارية المشهودة ، ليست بالجلب قهرا ، وليست بالغلبة ، وليست بالمكافحة ، بل انها سخرت له لضعفه ، وأعين بها لعجزه ، واحسنت اليه لفقره ، وأكرم بها لحاجته» . فالله تعالى الذي مَنَّ على الإنسان بهذه السلطنة ، لم يقصر لطفه على ذلك، بل رشحه لجنة أبدية ايضا . كل هذه الألطاف والإحسانات انها ثمرات القَدَر . ويبين الحق تبارك وتعالى في قرآنه الكريم رحمته وإحسانه اللذين اشرنا الى بعض أماراتها آنفا بالآية

الكريمة: { الذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُم } (البقرة:٢٢) .

لنحاول التوضيح بالمثال الآتي : كيفية ارتباط فعل التقدير (يعني القَدَر الالهي) بالرحمة والحكمة .

كلنا نعلم ان الارواح مخلوقة قبل الكائنات المادية . فلنفرض ان الله تعالى قد أَذِنَ لروحك ان تشهد خلق الكائنات المادية ، وسمح لها ان تراقب خلق النظام الشمسي . حينذاك لن تجد مغزى في توهج الشمس ، ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، ووجود طبقة هوائية فوق الارض ، لعدم احساسك بالليل والنهار ، أو بالصيف والشتاء ، أو بالأكل والشرب، وستتضاعف حيرتك لو اعلمك الله جل جلاله بلسان الحكمة أو بمخبر من عنده ! ان هذا النظام قد خلق لأَجلك ! لكنك ستشهد ، عندما تولد وتخرج الى الدنيا متقمصاً جسدك ، ان الرحمة لا تنتج الا من خلق العالم بالكيفية التي قدرها الله . فلو ان الله تعالى ترك الاختيار لأرواحنا وقضى باخراجنا الى عالم يقام حسب رغباتنا حين خلق الكائنات ، لرأى بعضنا عدم جدوى الغلاف الجوي ، ولجنح بعضنا الآخر الى أمور غير معقولة تتعلق بحجم الشمس أو الارض أو المسافة بينهما أو باوضاعهما الأخرى ، ولرغب قسم آخر في ثبات

الارض! فبدلا من هذه الرغبات الخاطئة المؤدية الى انطفاء جذوة الحياة، فقد خلق ربنا العظيم بإرادته وتقديره ، العالم على أحسن صورة، وجعلنا فيه بلطفه واحسانه . اذن فالقَدَر يسير جنباً إلى جنب ، ويتكامل مع الرحمة والحكمة.

في مرحلة تكوننا في أرحام امهاتنا ، تنقسم اجسامنا – وفق مخطط وبرنامج الهي – الى اقسام ، وتركب اعضاؤها في أنسب المواضع ، وتأخذ أصلح الأشكال ، وتنظم علاقاتها بعضها مع بعض بأكمل الصيغ ، بغير تدخل من إرادتنا ، كما في خلق الكائنات جميعها . وفعل التقدير – زيادة على تجليه في مواضع وشكل الأعضاء – يتجلى في حجومها واعدادها . فإمتلاكنا قلباً واحداً مقابل يدين وخمس اصابع في كل يد ، نتيجة من نتائج القَدَر الألهي أيضاً . فلو ترك الله تعالى كيفية خلق اعضائنا لرغباتنا ، ولم يسعفنا بأمداد رحمته ، لحدث ما ذكرنا في مثال خلق الكائنات ولتولد كل منا مخلوقاً عجيباً . إذن فبرنامج القَدَر الألهي وحده هو الذي يكوّن اعضاءنا جميلة وصالحة ، وابداننا في أحسن تقويم . هذا الجمال يتولد من جمال الخطة والبرنامج الذي بدوره يتولد من جمال القَدَر .

ومن مظاهر الاعجاز لفعل التقدير المتجلي فينا بالحكمة والرحمة : سكون أرواحنا وتوطنها في اجسادنا بأكمل طراز ، وتنظيم روابطها بالبدن بشكل مذهل ، وتركيب الحواس التي تحتاجها بأصح طريقة . وفيما يأتي نشير باختصار الى هذا النظام الإلهي الذي ننعم بآلائه رغم اننا لا ندرك كنهه وماهيته :

حدد الله تعالى عيوننا من حيث الحجم والشكل ، فحدد بذلك مدى اطلالة ارواحنا عن طريق هذه النوافذ الى العالم الخارجي . ويخفي تقدير أبصارنا على هذا النحو نعماً وافرة واحسانا جماً ، إذ لو امكننا من رؤية البكتريات عند تحديقنا في التراب ، أو مشاهدة ما في المخ عند تفرسنا في الوجوه ، لتحولت حياتنا الى عذاب !

ويتجلى تحديد القَدَر لطاقة العين والابصار ، بالرحمة والعناية نفسها ، في تحديد طاقة الأذن والسمع ، فالله تعالى ، الذي قدر شكل الأذن وحدد حجمها ، قد عين حدود السمع بأحسن حال . فلو امكننا سماع الاصوات من دبيب النمل الى الاصداء التي ترجّ انحاء الكائنات ، لصارت حياتنا اذن عذاباً أليماً !

وقياسا على هاتين الحالتين ، فان صاحب العقل السليم الذي يعتقد ان القَدَر نتاج الحكمة والرحمة في كل الأشياء ، يتوصل الى الحكم الآتي:ـ

أنا مع روحي – حيث الروح سلطان حاكم وانا وزيره ـ لو اعلمني الله بامكان تمتعي قدر ما شئت من حاسة البصر والسمع والشم أثناء فترة الأنتظار التي قدرها في رحم الأم ، لطلبت ما يفيض عن الحدود التي أعلم بحكمتها الآن ، ولعببت من هذه النعم ما يزيد عن الحاجة . ولقد جئت الى الدنيا وشهدت ان مقدار ما قدره الله المتعالي هو أصلح الأحوال .

نعم .. قبل مجيئنا الى الدنيا ، وضع ربنا سبحانه أمام عقولنا ومداركنا هذا العالم الذي زينه كما يزين الزهرة بحكمته وقدرته وعلمه، وقدر وخاق اعضاءنا وحواسنا بشكل يفيدنا أقصى الفائدة برحمته وحكمته، فبفضل هذا التقدير يفيض من حول الكائنات الخير والنفع والرحمة ويغمرنا كنور الشمس . وحتى نشهد استمرار الرحمة والاحسان بعد الموت ، يحتم العقل خضوعنا حرفياً للقوانين التي بلغها إلينا – وبتقديره تعالى – بوساطة رسله وكتبه .

ان كل ذي عقل يجري الحوار الآتي :-

كل علم من العلوم اثبت في مجاله : أن أي أثر أو عمل يتولد من برنامج القَدَر في الكون يحوي حِكَماً غير متناهية . والعلوم كلها لم تعثر في الكون على نقص أو زيادة . فان شئتم فانظروا الى انفسكم التي ترشحت

بمقاييس دقيقة وحساسة الكائنات وباعتبارها مثالاً صغيراً لها ... هل من تجدون نقصاً أو زيادة ؟!

وحيث ان كل ما يصدر عن منهج القَدَر في العالم ينتج الرحمة والفائدة، فالخضوع تماماً للمنهج الذي قدره الله تعالى للوصول الى السعادة الأبدية يؤدي حتماً الى اتمام كامل الرحمة في الآخرة . وكما نجهل فوائد اعضائنا المركبة في أجسادنا ونحن في أرحام أمهاتنا ، كذلك يصعب علينا في هذه الدنيا ان نحيط بنتائج الصلاة والصوم والعبادات الأخرى في الآخرة والتي أمرنا بها ربنا جل جلاله . ما أعظم المنافع المدخرة لآخرتنا في كل أمر ! وما اعظم النجاة في كل نهي قدره الله تعالى!

لنحاول ايضاح هذه الحقيقة ببعض الامثلة :

الأب الذي يرعى ولده في شفقة ويلبي حاجاته باعتناء ، يتمنى لـــه مهنة محترمة في المستقبل . ولهذه الغاية يعلمه في المدارس ويحرص على نجاحه في الدراسة ليفيد نفسه وبلده وأمته . لذا سيضع بعض الأوامر والوصايا الى جانب بعض الممنوعات، وسيعده بجوائز لو أدى واجباته، وسيتوعده بعقوبات لو خالف ذلك . لكن ثمة شفقة ورحمة حتى وراء الوعيد والعقوبات . فلو انقاد الولد لمنهاج والده حرفياً ونَفَذ أوامره

واجتنب نواهيه فسينال سعادة على أساس أنه صاحب مهنة ، فوق كونه صاحب أخلاق عالية .

وبالطريقة نفسها يحض الاستاذ تلميذه ليشرّفه بالعلم ، ويتوعده ببعض العقوبات اذا ما أهمل واجباته. هذا الوعد والوعيد انما هما لمصلحة طلابه. ومن يدرك ذلك منهم يدع رغبات نفسه جانباً وَيَنَل درجات العلم بخضوعه لمنهج استاذه.

والمريض ايضا يطرق أبواب الشفاء بتناوله الأدوية التي يوصي بها الطبيب برأفة في الأوقات التي يقدرها له ، وبالمقادير التي يعينها ، وبامتناعه عن إتيان ما يحذره منه بدقة .

اذن .. فحنان الأب على أولاده ، والأستاذ على طلابه ، والطبيب على مرضاه ، ورحمتهم بهم ، يقتضي تنظيم برنامج لمجموعة من الأوامر والنواهي. فالحدود والمناهج الموضوعة في هذه الامثلة تؤدي الى الرحمة. وبالقياس نفسه ، تكون أوامر الله ونواهيه منهجاً ربانياً لنيلنا السعادة الأبدية ، وكل من يدرك هذه الحقيقة عليه الخضوع كلياً لمنهجه تعالى المتجسد بِقَدرهِ ، معتمداً على رحمته . وهذا ما يحتمه العقل ، لأن الإنسان بعبادته وصدقه وعفته ومن بعد ذلك نَيلهُ السعادة الأبدية ، لا يجلب

نفعا لله تعالى – حاشاه – ، كما أنه باتباعه سبيلاً مغايراً لأوامره ، ومن بعد ذلك دخوله النار ، لا يجلب مضرة عليه سبحانه.

اذن .. ليس أمره جل شأنه –وهو الرحمن الرحيم – باتباعنا سبيل السعادة ونهيه عن سبيل الشقاء ، إلا شأن يليق برحمته الواسعة. وتشير الى هذه الحقيقة ابتداء كل سورة من سور القرآن الكريم ـ الذي يَضُم أوامر الله ونواهيه – بآية (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**). فالرحمة أساس هذا الكون ، وأساس الآخرة ، وجهنم مأوى العصاة الهاربين من هذه الرحمة، وان توعد الحق تعالى بنار جهنم يتضمن حثّ الإنسان على نيل الجنة.

فيما سبق حاولنا ما وسعنا أن نوضح أن القَدَر كله خير ولطف وجمال، ويفضي الى الرحمة. فربنا العظيم الذي أخرجنا من ظلمات العدم الى نور الوجود وسخر لنا كل شيء ، بدءاً من الشمس والقمر وانتهاء بالنبات والحيوان ، ورشحَّنا لنيل السعادة الابدية ، لاشك أنه قد جعل الرحمة اساسا لقَدره الإلهي في كل المجالات ولكل الأزمان .

وعندما نتحدث عن القَدَر يجب ألا يخطر على بالنا منظر مأساوي كئيب كما يحاول ان يصوره بعض ضعاف النظر أو المتشككون ، بل يجب أن تتفتح في قلوبنا أزاهير الرحمة والعناية . ومع ذلك ، فثمة أسئلة

متنوعة تتعلق بالقَدَر ، وسنحاول في الفصول المقبلة أن نجيب عنها ، ونعرض بعض المسائل ، لكن قبل كل شيء يجب على المسلم ان يؤمن أن ربنا الجليل الذي أسبغ نعمه علينا برحمته الواسعة لن يبدل إحسانه وعنايته بالنقمة علينا ، حاشا لله ! ومن يدخل النار يدخلها بعصيانه ، ولسنا أرحم من الله تعالى بالناس وبانفسنا. على هذا النحو يفكر المسلم، والا فخوضه في مسألة القَدَر على نحو إعتراضي يوجب سخطه تبارك وتعالى .

ولنختم هذا الموضوع بتوضح النقطة الآتية :

ان طاقة العقل الإنساني لا تتسع لفهم القَدَر فهماً كاملاً . وكما أن الإنسان يرى جزءا من المجالات التي تشرق الشمس عليها ، غير انه يعلم ان الشمس تضيء في كل مكان ، كذلك – وبالقياس نفسه – فان ما يفهمه وما يراه من تجليات القَدَر هو جزء محدود جداً . وفي الحقيقة أن الحكمة تستوجب ذلك . فمن البديهي ان عقل الإنسان الذي خلقه خالق الكائنات لا يسعه ان يدرك قدره كل الإدراك . ولكن قليل مما يدركه ، يكفيه ، بل يزيد ، ليوقن ان القَدَر يزن كل شيء بأنسب وأحسن وأعدل معيار. لهذا يقع على الإنسان واجب الشكر لما استطاع أن يفهم من حكمة القَدَر ، وطلب العون منه تعالى للإستزادة من الفهم ، ثم

الإعتماد على رحمته في الميادين التي لا تطالها مدارك البشر . وكما ذكرنا من قبل ، فان من لوازم عبوديتنا لله تعالى البحث عن اجوبة لتساؤلاتنا في موضوع القَدَر ، والتي لا يقصد منها الإعتراض ، بل الرغبة في الفهم والبحث . فيكون البحث بذلك ، تحصيلاً للعلم ، ونوعاً من العبادة ووسيلة للوصول الى السعادة الابدية . وبهذه النية سنحاول شرح الموضوع في الفصول الآتية بعنايته تعالى .

القَدَر والقضاء

معنى القَدَر والقضاء :

القَدَر والقضاء من المسائل الإيمانية البالغة الأهمية والتي اشغلت العلماء والفلاسفة المسلمين مدة من الزمن ، وقد اهتم كبار المجتهدين وأفذاذ العلماء الذين وضعوا أُسس الفقه بمسألة القَدَر معتبرين الإعتقاد به من ركائز الإيمان والإسلام، وأجمعوا على ضرورة الإيمان بقَدر الله كما يؤمن احدنا بصفات كماله الأخرى كالعلم والإرادة والقدرة.

فالقَدَر والقضاء من الضرورات اللازمة لصفة الإرادة والقدرة ، اذ أن الكائنات وما يدور فيها من الأحداث ، يستند الى علم ، وحدوث الكائنات والأحداث الجارية فيها ، يعتمد على قدرة يحققها ، وان الله تعالى ، العليم بها والقادر على خلقها ، قد أخرجها من العدم الى الوجود بالإرادة . ويلزم ان الله تعالى ، الذي خلق الكائنات وحوادثها بعلمه وقدرته وأرادته وصفاته الأخرى ، لابد انه خلقها بتعيين وتقدير وغاية وسنن . فالقَدَر اذن - بعبارة موجزة - هو تقدير هذه الغاية والسنن ، والقضاء؛ هو اجراء تلك الغاية والسنن (أي تنفيذها وسريانها) .

وبتفصيل أكثر يمكن تعريف القَدر والقضاء كما يأتي :

- **القَدَر** : هو التعيين والتحديد بنظام وسنن معينة منذ الازل من لدن الله سبحانه وتعالى لجميع احوال الموجودات والحوادث وصفاتها واسبابها ولوازمها ، ، وما تحوز من قوى وقابليات ، وأماكن ظهورها الى الوجود وازمنتها.
- **أما القضاء** : فهو ظهور قدر الله الازلي الى حيز الوجود بالخلق والحدوث.

اذن فالقَدَر يستند الى صفة العلم ، والقضاء يستند الى صفة القدرة وأيضاً القَدَر يسبق القضاء ، وكذلك يكون القَدَر أشمل واحوى من القضاء ، لأن كل قضاء مقدّر ، وليس كل مقدّر قد حصل بالقضاء ، أي ان الحوادث قَدر وقضاء في الوقت نفسه ، أما الأشياء التي لم تخلق فهي قَدر ولكنها لم تظهر بالقضاء ، أي لم يقض بها ولم تحدث بعد .

لنوضح ببعض الامثلة كون القَدَر أشمل وأحوى من القضاء :

لو ارتكب شخص الأفعال المحرمة المنهي عنها ، فانه يكون عاصياً ، ولو فعل العكس لصار عبداً صالحاً مفيداً لمجتمعه ولنفسه باطاعته ربه بدلاً من عصيانه . وكلتا الحالتين المتناقضتين هما (قَدَر) ، أي ان الله قد قدّر وعيّن منذ الازل سُبل وأسباب الصلاح والعصيان ، ففي الحالة الأولى قدّرت للشخص أسباب العصيان على عكس الحالة الثانية اذ

قُدرت لـه أسباب الطاعة . فان سلك أياً من السبيلين يسري (القضاء) بأحكامه عليه ويجني ثمار أعماله. وهذا القضاء هو في ذات الوقت (قَدَر) لكونه مما قدّره الله .

لنضرب مثلاً آخر :

نعلم ان أية أُمة من الأمم ترقى الى مستوى عال من السعادة في حياتها الدنيوية والأخروية بتحقيقها الطمأنينة المادية والمعنوية نتيجة اتخاذها أسباب الرفاه والإرتقاء في العلوم والمعارف والفنون والتجارة بشكل يتلاءم مع فطرة الخليقة ، وعلى العكس تكون قد حكمت على نفسها بالشقاء في الجهل والفقر ان لم تتمسك بأسباب الرقي . ان كلتا الحلتين من (قَدر) الله. أي؛ أنه قَدر وبين سبل التقدم والتدهور ، فأن سلكت الأمة سبيل التقدم فأن وصولها الى هذه النتيجة قَدَر وقضاء في الوقت نفسه ، اما ان سلكت سبيل التدهور فان قدرها الضعف والفقر ، وفي هذه الحالة فان التقدم لم يجر به القضاء أو لم يظهر بالقضاء .

ولنأت بمثلين آخرين لتسليط ضوء أكثر على المسألة :-

إذا غرست في أرضك الشجر وفعلت ما يجب فعله لنموه فان جنيك الثمرات بفضل الله عليك هو قَدر وقضاء في الوقت نفسه ، فلو انك لم تزرع فان عدم امتلاكك الشجر قَدر ، ولكنه ليس قضاء ، لعدم وقوع أو

ظهور حادث خلق الاشجار . وبالقياس نفسه اذا رزقك الله أطفالاً فان ذلك قَدر وقضاء في آن واحد ، ولكن لو لم يكن لك أولاد فان ذلك قَدر وليس قضاءاً . وهكذا نرى مرة اخرى ان القَدَر أكثر احاطة، واشمل من القضاء .

يمكننا تقسيم القَدَر فيما يتعلق بالإنسان الى نوعين :-

الأول : يرتبط بحركة الإنسان التي يفعلها بإرادته وقدرته .

والثاني : بالحلات والحوادث الخارجة عن طاقة الإنسان .

فالنوع الاول يسببه الإنسان نفسه، لان الله سبحانه قد بين وقدر اسباب السعادة الدنيوية والاخروية للفرد والمجتمع . فان اتخذوا هذه الأسباب فإنهم يجعلون قدرهم السعادة وإلا فأنهم يلقون الشقاء والفقر حيث انه من لوازم القَدَر ان من يتمسك باسباب السعادة يسعد ، ومن يتمسك باسباب الشقاء يَشقَ .

وقد ورد في القرآن الكريم : { إِنَّ اللهَّ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} (الرعد:١١).. أي أن الفرد أو المجتمع يكون هو نفسه مسبباً لقدره ، وهذا هو معنى أن الإنسان يعين قدره بنفسه.

سبق ان قلنا أن الله تعالى قد قدر منذ الأزل حدوث نعم الدنيا والآخرة باسباب تسبِّبها ، وربطها بشروط ، فالرغبة في حدوثها بغير

الأخذ بالأسباب تنافي السُّنن الإلهية ، وليس من المتصور طلبُ النعم بغير تحقيق أسبابها ، اذ ان طلب الأولاد من الله تعالى يستدعي الزواج ، وطلب الثمرات يستدعي غرس الشجر ، وكذلك طلب الجنة يستدعي الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه . وكل هذه الأمور هو قَدَرُ الله تعالى. ونحن المؤمنون بالقَدَر ينبغي ان نخضع لما قدره الله تعالى وان نكتسب اسباب النعم ، فطلب الثمرات بغير غرس الاشجار ، وتوقع السعادة الابدية بغير عبادة ، هو تحدٍّ للقَدر ، وطلب للشيء بغير ثمن ، وما جزاء ذلك الا الحرمان من النعمة المبتغاة.

إن جلَّ اهتمامنا سينصب على ذلك الجزء من موضوع القَدَر المتعلق بإرادة الإنسان . اما الجزء غير المتعلق بإرادته فليس بمقدور العقل الإنساني الوقوف على اسراره وحكمته ، مستحضرين القاعدة القائلة: «العقل مخلوق ويستحيل عليه ان يحيط علماً بخالقه». ومما يضم الجزء الأخير كون الإنسان ذكراً أو أنثى ، والعصر الذي ولد فيه ، وفي أي بلد، وعمره ، وعدم اختياره لوالديه .

ولعل محاولة الخوض في هذه الأسرار وامثالها يورد الإنسان موارد التهلكة وينبغي ترك الكشف عنها الى يوم .. يوم العدل الاكبر. وهذا هو المقصود بالنهي الوارد في الأحاديث النبوية الشريفة عن الخوض في

القَدَر ، ولا نرى إنصراف النهي الى الجانب المتعلق بإرادة الإنسان ، إذ اشبعه علماء العقائد بحثاً وتأليفاً.

أرادة الإنسان وقدرته :

الإرادة - لغة - تعني القصد والمشيئة. وتعرف بقوة تعيين أو تخصيص الإختيار بين ممكنين . وهي مخلوقة مثل كل حواس الإنسان المخلوقة .ويميز علماء الكلام بين الإرادة الكلية والإرادة الجزئية للإنسان . فالإرادة الكلية للإنسان تعني الإرادة الموجودة لديه قبل البدء بفعل شيء ، فإذا تعلقت إرادته في أية لحظة بفعل معين أو توجهت الى ذلك سميت بالإرادة الجزئية . وتنبه - ايها القارىء الكريم - الى عدم الخلط بين مفهوم (الإرادة الكلية) الواردة هنا وصفة (الإرادة الكلية) للذات الالهية . كما نذكر ان كلمة (الجزئية) المتعلقة بالإرادة هنا ، لا تفيد «القليل» من «الكثير» بل هو «تعيين» الفعل أو الشيء. «فالكلية» تفيد الشمول. و«الجزئية» تفيد التعيين والتخصيص . ومن باب التشبيه نقول : ان كلمة «الإنسان» تدل على معنى شامل لعموم البشر في الذهن اما كلمة «أفراد» فتدل على اشخاص معينين خارج الذهن. على هذا فان الإرادة الكلية للإنسان هي حالة يمكن توجيهها الى أفعال غير محددة

قبل البدء بأي فعل ، مثل القراءة أو المشي أو الكتابة ، لكن في لحظة القرار بالتوجه الى اي فعل فان الإرادة تكون «جزئية» لانها تحددت وتعينت ويمكن التعبير عن معنى الإرادة الجزئية بكلمات : «القصد» ، والكسب والاختيار والطلب والعزم.

خلاصة ما ذكرنا : ان إرادة الإنسان مخلوقة وسابقة لوقوع الفعل، وخروج هذه الإرادة الكلية من (القوة) الى (الفعل)[1] ، أي تعلقه بفعل معين ، تقع مع وقوع الفعل وتسمى «الإرادة الجزئية» . وسنشرح هذا الموضوع بشرح أوفى في فصل «أفعال العباد».

قدرة الإنسان :

القدرة : هي القوة التي تعطي للفاعل امكانية القيام بالفعل ، أو ترك فعل المقدورات (أو الممكنات) ، أو اجراء التأثير عليها ، وفقاً للإرادة . وما قيل عن الإرادة الكلية والجزئية ينطبق على القدرة أيضاً . فالقدرة الكلية للإنسان هي حالة امكانية العمل لأعضائه وحواسه كافة ، اذ يمكن توجهه للقيام بأي فعل كالسير أو القراءة أو الاستماع ، لكن اذا ما

---

[1] أي: من قوة كامنة واستعداد مخلوق فيه الى فعل مشهود.

قرر القيام بأي من تلك الأفعال تحديدا ، فقد صارت قدرته (الموجودة فيه بالقوة) جزئية .

فالقدرة الجزئية تحصل بوقوع الفعل . اما القدرة الكلية فانها موجودة قبل وقوعه . هذا وان شرط التكليف والامتحان هو وجود القدرة الكلية ، فلا تكليف من الله تعالى على من ينعدم فيه وجود القدرة السابقة ، اذ لا يكلَّف من ليس عنده يدان بغسلهما في الوضوء ، ويمكن قياس الأفعال كلها على ذلك.

القَدَر والإرادة الجزئية حماية للايمان :

ان النفس الأمارة بالسوء تدعو الإنسان الى الغرور والكبر اختيالا بالصفات الحميدة ، والى التعلل بالأعذار لتبرير سوء العمل أو تحميلها الآخرين .

ان الاختيال بالصفات الحميدة ونسبتها الى نفسه – وليس الى الله الذي أحسنَ اليه – يقوده الى الغرور والكبر . والكبر درجات متفاوتة غير متساوية ، فمنه تعاليه على اقرانه ، أو على عالم من العلماء ، أو عالم مجتهد ، أو على صحابي من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) . ونعوذ بالله من شرور الكبر والغرور . فقد حرم الكبر (ابا جهل) من

الإيمان والشهادة بنبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وجرَّ (فرعون) الى درك ادعاء الالوهية . وحيث ان غاية الكبر ونهايته هي الكفر أو فقد الإيمان ، فان الإعتقاد بالقَدَر يتصدى له ، بارجاع جميع فضائل الإنسان وصفاته الحميدة الى الله تعالى الذي أسبغها عليه احساناً منه . فالمؤمن السوي يعلم ان الله تعالى قد خلق الإنسان محورا للكائنات ، ومجبولا على عمل الخير ، كخلقه النحل مجبولا على صنع العسل ، والشجر مجبولا على الأثمار. فالخير والجمال المشهودان في الإنسان هما فضل واحسان محض من الخالق عزَّ وَجَلَّ . وحيث لا يحق للكائنات ان تختال بالإنسان ، ولا النحل بالعسل ، ولا الشجر بالثمر ، فليس للإنسان أن يختال بصفاته الحميدة وفطرته السليمة . لذلك فالمؤمن السوي بمنجاة من الكبر والغرور . ومن يكن هكذا ، يَضِف الى صفات الخير فيه صفة حميدة جديدة .

ولئن تذكر الإنسان : أن الرحمة الالهية قد اقتضت الحسنات ورعتها ، وان القدرة الرحمانية قد أوجدتها ، فلن يفخر بصالح اعماله . فالسؤال والجواب ، والداعي والسبب كلاهما من الحق تعالى.

وللايضاح نقول : ان الله قدر ان نزرع شجرة الرمان لنجني الرمان.. فكأن الشجرة هنا «سؤال» والرمان «جوابه» وكلاهما من خلق ربنا

تعالى، كذلك امرنا الله تعالى في قرآنه الكريم بالعبادات وعلَق ثمرات الثواب عليها ، فكأن العبادات هنا «سؤال» والثواب «جوابه» ، وكلاهما من الله تعالى .

ذكرنا فيما سبق ان الإنسان المختال المتكبر بمزاياه ، يميل الى التنصل من سيئاته ، وهي صفة صبيانية تلاحظ عادة عند الصغار ، والأولى بالإنسان العاقل ان يتقبل أخطاءه ويبذل جهده في اصلاح نفسه بالتوبة الى الله واللجوء الى رحمته . فلو تأصلت عادة انكار الخطايا عند شخص ما ، فستقوده الى انحراف مؤداه (تحميل القَدَر مسؤولية خطاياه ومعاصيه جميعها) ، وهذا افتراء على الله يجر الى وبال الكفر . فما دام المؤمن مقراً بذنوبه فانها لا تدخله الى دائرة الشرك ، وارتكاب الكبائر لا يخرجه من دائرة الإيمان ، لكنه اذا اعتقد انه « لم يكن ليرتكب الذنب لولا أن الله أراد له ذلك وان القَدَر كان السبب في ارتكابه المعاصي» ! فانه بذلك يدخل في دائرة الكفر . هنا يبرز الإختيار (أو الإرادة الجزئية) ليكون سداً يمنع سقوط المرء في الهاوية ، فانه اذ يعتقد بارتكابه الذنب باختياره - أي بإرادته الجزئية - وليس بأجبار القَدَر ، ينقذ نفسه من السقوط في دائرة الكفر ويحفظها في دائرة الإيمان ، فيتوجه الى التوبة بعد زوال الغفلة .

هكذا يغلق القَدَر والإرادة الجزئية كلا البابين المؤديين الى الكفر في النهاية.

مسؤولية الإنسان عن الأفعال الإختيارية

تباين الأفعال الإختيارية والأفعال الإضطرارية :

إن أفعالنا نوعان : نوع يحدث من غير أرادة منا ، وهي « الأفعال الإضطرارية» ، التي لسنا مسؤولين عنها ولا ثواب لنا عليها. مثل دوران الدم ، وطرف الاجفان ، وولادتنا ذكوراً أو اناثاً ، وألواننا أو أعراقنا . ونوع آخر يحدث بإرادة منا ، وهي : « الأفعال الإختيارية» ، التي تكون موضوعاً للخير أو الشر، كالنظر، والاكل، والشرب، والتكلم .

والإنسان ، في قرارة نفسه وضميره ، يميز بين الأفعال الإضطرارية والأفعال الإختيارية ... اذن كيف يتسنى له ان يقول بلسان حاله حين ارتكابه الخطايا بإرادته الجزئية : « هذا قدري ... الأقدار أجبرتني على ذلك.»؟! وكيف يمكن ان يحمّل القَدَر أوزاره في حين ينسب أفعاله الحسنة الى نفسه قائلاً : « أنا فعلت كذا وكذا » ؟! ولِمَ لا يحمّل الاقدار تلك الأوزار لو صدرت عن غيره ؟

فلو اشتكى لصاً سرق داره الى القضاء فدافع اللص عن نفسه بقوله: « انا غير مذنب لان السرقة كانت مكتوبة ومقدرة عليَّ» ! ، لاستشاط غضباً .

ولو ان قاتلاً وجّه طعنة الى صدر ابنه فانه سيأخذ بتلابيبه ولن يهدأ روعه بقوله : « هذا قدر الرجل.. لقد قدّر عليه قتل ولدي شاء ام أبى!».

ولن يقول وهو يشتهي أن يغرز أصابعه في العيون التي أمتدت الى عرضه : « ليس للرجل من الامر شيء .. حدث ما حدث لانه قدر ! ».

اذن ، باي منطق يحمل القَدَر الأفعال نفسها لو ارتكبها بنفسه ؟. ان من يخادع نفسه بهذه المغالطة ، وهذا الافتراء على القَدَر ، يهدم سعادته الدنيوية والأخروية بيديه ، ويجعل من نفسه داعية الى تقويض الأمن الاجتماعي .

فلو ساوينا بين الأفعال الإضطرارية والإختيارية ، واسندنا الأخيرة أيضاً الى الجبر والقَدَر على هذا النحو الخاطيء ، فقد ينشأ نتيجة ذلك ، هراء كثير . اذ لن تكون الانتصارات والمعارف والعلوم والفضائل والآثار الفنية مدعاة للفخر والمدح، ولا الجهل والتوحش والانهزام والذلة مدعاة للذم والقدح ، ولن يكون الإنسان مسؤولا عن اي فعل

قبيح يفعله ، ولا مثاباً على أي فعل جميل ، ولن يذكر بالخير عدل «عمر» (رضي الله عنه) لكونه مجبراً ، ولا ظلم «الحجاج» لكونه مضطراً الى الظلم.

واذا كنا نعلم في دواخلنا وضمائرنا أننا لا نلاقي معوقات في استخدام إرادتنا الجزئية في حياتنا اليومية ، فكيف يسعنا الادعاء بوجود عوائق في طريقنا الى امتثال أوامر الله ؟ وهل يصح ان لا تجابهنا موانع في فعل المباحات من امور الدنيا أو ارتكاب الذنوب والمعاصي ثم تجابهنا في العبادات فقط .. حتى يعتذر البعض بالقول : « لو كان ... لأقمت الفرائض وعبدت الله » ؟!

ونلاحظ في امور الدنيا ان المرء قد ينقصه بعض اللوازم كرأس المال أو الأيدي العاملة ، غير انه لا ينقصه شيء لإقامة العبادات . فقد لا يوفَّق رجل في بناء سكن له لعوائق تمنعه فيردّ ذلك الى القَدَر ، لكنه يسعى الى بناء بيت في الجنة ، لن تواجهه اية عوائق تصده عن ذلك، لذا فليس باستطاعته ان يرد اهماله الى القَدَر باي وجه من الوجوه ، فلا عائق عن الصلاة لمن يريد ان يصلي مثلاً ، فان وجد « سبباً مجبراً» يعيقه عن الصلاة فانه غير مسؤول عن عدم صلاته حينئذ ، والمراد « بالسبب المجبر» ! الإضطرار الذي يكون دفعه فوق طاقته وقدرته ، كمن يقاد

قسراً بعد تقييد يديه ورجليه الى حانة ويصب الخمر في فمه ... فان مدافعته باقصى جهده تنجيه من السؤال والعقاب لعدم ارتكابه الفعل بإرادته الجزئية . ولا قياس بين هذه الحالة وحالة من يحتسي الخمر (أو يرتكب اية سيئة اخرى) بمحض إرادته الجزئية بدعوى ان القَدَر قد حكم عليه بذلك .

وقد يخطر على البال خاطر وهو : أتُرى ثمة فرقاً في التكوين والخلق بين من يقضي حياته في الطاعات وبين غيرهم من الناس ؟ هل كانت الإرادة الجزئية لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تختلف عن الإرادة الجزئية لأبي جهل ؟ حتى دعت الأول الى اختيار سبيل الهداية والثاني سبيل الضلالة ؟

ان الوجدان والعقل والمنطق ، كل أولئك ، يجعلنا نعتقد ان البشر يمتلكون إرادتهم واختيارهم تماماً ، سواء في أمور الدنيا أو الدين . ولو كان الناس يرتكبون المعاصي لكونها مقدرة عليهم من الأزل بطبيعة تكوينهم فإن أوامر الله الحق الحكيم ونواهيه وكتبه ورسله تكون عبثاً - حاشا الله - . ولو ان الله الحق الحكيم خلق الناس مجبرين على الطاعات أو المعاصي من غير إرادة منهم فادخلهم الجنة أو أوردهم النار حسب ذلك ، فما فائدة الوعد والوعيد في القرآن الكريم المنزَل على رسوله

الأمين(صلى الله عليه وسلم) ؟ حاشا لله ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ونعلم أيضاً ان الله - وهو رؤوف غفور - يأمرنا بالتوبة ، وسيدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له). ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (.. وخير الخطائين التوابون ..)[1] فالله تبارك وتعالى يدعو من يبتغي الارتقاء الروحي وبلوغ السعادة الابدية الى الولوج من باب التوبة .. ذلك السيل الذي اغلقناه بالذنوب، ويمكننا فتحه بالتوبة في اي وقت حتى آخر لحظات اعمارنا ، فيقبل الله توبتنا بلطفه . وهذا هو السر في وجوب التوبة بعد الذنب ، بينما لا وجوب في شيء يحدث رغم إرادتنا . فلو كان الإنسان مجبراً وملزماً في أرادته الجزئية ، فان كل الأوامر المتعلقة بالتوبة لهوٌ وعبث .

إن اختبار قسم من الناس سبيل الخير ، وآخرين سبيل الشر ، يدلنا على وجود الإرادة والاختيار لدى الإنسان . فلو كان العكس صحيحاً لصار مجبراً على فعل ما يحمّله القَدَر اياه طوال عمره لا مفر له الى غير

---

[1] أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وأحمد (١٣٠٤٩) واللفظ لهما، وابن ماجه (٤٢٥١) باختلاف يسير.

ذلك ، كالبقرة اذ تدر اللبن، او الجمل اذ يحمل أثقالاً . والحال اننا يمكن ان ندرك الفرق بين الإنسان والحيوان بالبداهة ، حتى من غير اية معلومات دينية . فنحن ندرك ان البشر يختارون السبيل بإرادتهم ويفكرون في سنوات قابلة ويخططون لها ويبرمجون . اذن بامكان الإنسان ان يختار طريق السعادة الابدية وان يؤدي وجائبها لمنهاج السعادة الربانية الجليلة حسب ما هو وارد في القرآن الكريم .

على هذا فالمنطق يلزمنا : إن من يسيء الاختيار يكن مسؤولا عن اساءته ويحكم عليه بالحرمان من السعادة الابدية .

إن منح الإنسان حرية الاختيار لأوامر الله ونواهيه بالإرادة الجزئية من موجبات العدل الالهي . لذا فقد ربط سبحانه إرادته الالهية بإرادة عباده الجزئية حتى لا يكون ثمة جبر أو الزام ، فالله الخالق لجميع الأفعال بقدرته وإرادته ... اشترط لخلق الأفعال الإختيارية لعباده ان ترتبط بإرادتهم الجزئية وترجيحهم وميلهم . أي ان الله تعالى لا يخلق أي فعل كان ، ما لم يتوجه العبدُ بإرادته الجزئية الى ذلك الفعل . فالله تعالى يخلق ان شاء بقدرته وإرادته الأفعال الإختيارية اذا توجهت أرادة العيد الجزئية اليه ، خيراً كان ام شراً .

لنوضح هذه الحقيقة بمثال :

لنفرض أنك نزلت ضيفاً على سلطان في مضيفه ، وعُرِضت عليك في كل طابق من طوابق المضيف ألوانٌ من النعم والاحسان ، ولحكمة ما وضعت حيوانات متوحشة كالأسود والفهود ، وحيوانات سامة كالثعابين والعقارب ، في سردابه ، وان السلطان بسفرائه ومراسيمه قد دعاك الى كرمه في طوابق المضيف ومنعك من النزول الى السرداب في الطابق الاسفل . ثم وضِعتَ في مصعد ، وتَركَت لك حرية اختيار اي طابق من الطوابق تود ان تنزل فيه ، وذلك بالضغط على ازرار عليها ارقام الطوابق في المصعد بإرادتك الجزئية.. انت الآن تملك اختيارك بمجرد لمس رقم الطابق فان المصعد يتركك هناك ، اي ان المصعد يرتبط باختيارك. فلو أنك ـ بعد أن ضغطت على ارقام الطوابق المختلفة في المضيف وتمتعت بالنعم التي فيها – تبعت هوى النفس قائلا : « ماذا لو نزلت الى السرداب الأسفل ؟ . . ثم فعلت ذلك ، فقد هيأت لنفسك موقفاً مرعبا .

المصعد الذي يمثل أرادة السلطان في مثالنا ، يرتبط باختيارك وقرارك وترجيحك . ان اردت الخير حملك اليه ، وان اردت الشر القاك فيه أيضاً.

وكما يعرض الله تحت ضوء الشمس كل الأشياء ، فيختار الإنسان شيئاً معيناً لرؤيته ، كذلك يمكننا بإرادتنا الجزئية اختيار الأفعال الضارة أو النافعة التي يبينها الله لنا بوساطة رسله وكتبه ، فيخلق بإرادته الكلية وقدرته المطلقة - التي تحوي الإنسان وسائر المخلوقات ـ ما تتوجه اليه أرادة الإنسان الجزئية من الأفعال . فالشيء الوحيد الذي نملكه نحن هو حريتنا في (الضغط على ازرار المصعد) ! .. وبعد هذا الاختيار فأن جميع الأفعال (بدءاً من عمل الاعضاء في اجسادنا وانتهاء الى صيرورة الأفعال الضرورية في الوجود لحدوث الفعل المقصود) مخلوقة بالإرادة الكلية والقدرة لله تعالى .

فمثلا : ان ما يملكه الإنسان في فعل الرؤية هو اختياره النظر فيما هو حرام أو حلال ، وما عدا ذلك (اي خلق الشروط الداخلية والخارجية لرؤيتنا) هو من عند الله تعالى ، فالله هو خالق جميع حركات العين اللازمة للرؤية أو ضوء الشمس أو اية لوازم اخرى للنظر.

بناء على ذلك ، لن يستطيع اي انسان ان يدعي انه محكوم بالإرادة الكلية فيما اذا أقترف اثماً أو ذنباً بإرادته الجزئية . فلا يمكن - مثلا - لمن ينظر في حرام، أو يطلع على مجلات ماجنة ان يقول : « ان ضوء الشمس هو الذي ابصرني هذه المناظر »!

ونود ان نلخص ما ذكرناه فنقول : اننا نعلم في ضمائرنا واعماقنا أننا بخلاف بقية المخلوقات - نمتلك نوعاً من الحرية ، ونستطيع في حدود قدرتنا ان نختار وننال ما نطلب وما نميل اليه ، ونعلم أيضاً ان أرادة الله تعالى (في تلك الحدود) تتعلق بإرادتنا ، وخلقَه بكسبنا . فهل حصل ان صرفنا إرادتنا وقصدنا الى الخير فخلق الله خلاف ما نقصده من شرٍّ لنا ؟

طبعا كلا ! فربنا الجليل الحكيم الكريم يخلق الخير بكرمه ان وجهنا إرادتنا الى الخير ويخلق الشر بحكمته وعدالته ان وجهنا اختيارنا الى الشر.

مسالة مهمة :

ثمة سؤال يتردد كثيراً : « بما ان الله تعالى قد كتب وقدّر منذ الأزل كل الأشياء بعلمه وإرادته ، فيكون قد قدّر لأحدهم فعل الشر .. فكيف يمكن لهذا ان يفعل الخير ؟ وكيف يكون مسؤولا عن عمل الشر ؟ .

نعم .. ان الله تعالى قد قدّر ونظم وكتب في اللوح المحفوظ منذ الازل ما كان وما يكون ، والافعال الإختيارية والإضطرارية للإنسان الذي جعله زبدة الكائنات.. ولاشيء في الكون يستطيع الخروج على القَدَر أو يبتعد عما كتب له .. اذ ان جميع الموجودات تتبع القَدَر ، لكن ذلك لا يخلّصنا من ثقل المسؤولية ، فمن الثابت والمعلوم في علم الكلام: « ان

العلم يتبع المعلوم ولا يتبع المعلومُ العلمَ ». حيث ان العلم اصطلاحاً هو : «شكل الشيء في الذهن» ، اما المعلوم فهو: «شكل الشيء في الخارج» .

ونضرب مثلا : زهرة القرنفل . ان شكل القرنفل في اذهاننا يسمى «علماً » .. اما شكلها في خارج الذهن - اي الزهرة نفسها - فهو «المعلوم» هنا العلم يتبع المعلوم اي يتعلق به . بعبارة اخرى : كيفما تكون زهرة القرنفل في الخارج يتشكل علمنا بناء على ذلك ، ولا يصح ان نقول بان شكل القرنفل يتواءم ويتكون كما هو في علمنا أو في تصورنا !

في ضوء هذه القاعدة وفي نطاق موضوعنا ، المقصود «بالعلم» معرفة الله تعالى بعلمه الازلي لجميع أفعالنا ، اما «المعلوم» فهو أفعالنا نفسها . بناء عليه بالامكان صياغة القاعدة من جديد بالعبارة الآتية : (ان الله تعالى منذ الازل قد علم وقدر الأفعال الإختيارية للإنسان بالكيفية التي سيكتسبها) ، اي بالشكل الذي سيقوم به .. وليس العكس ، حيث ان الإنسان لا يقوم بالأفعال الإختيارية بالكيفية التي هي في علم الله ، بل الله يعلم كيف سيختار الإنسان أفعاله باختياره.

لنوضح المسألة أكثر ببعض الامثلة :

– إن معرفتنا بتاريخ كسوف الشمس والساعة التي يحدث فيها هو «علم» . أما «المعلوم» فهو الكسوف في ذلك الموعد . فالعلم هنا يتعاق بالمعلوم. وافتراض العكس يوجب حدوث الكسوف بسبب علمنا بموعده.

– كذلك معرفتنا بشخص معين أن اسمه أحمد هو «علم» و «المعلوم» هو كون «احمد»ذلك الشخص . اذن علمنا تابع للمعلوم فلو كان المعلوم تابعا للعلم لوجب ان يكون اسم الشخص «محمدا» عندما نعلم (أو يقع في علمنا) انه «محمد» أو يكون «حسناً» ، في اللحظة التي يقع في علمنا انه «حسن» !

ان جميع الأفعال التي يكتسبها الإنسان بإرادته الجزئية هي في علم الله الازلي ، اي انه يعلم بجميع اعماله منذ الأزل . وعلمه تعالى هذا يتعلق بالمعلوم، والمعلوم هنا هو الأعمال التي يكتسبها الإنسان خيراً أو شراً ، أي أفعال العبد.

والله العالم المطلق يعلم كيفية أفعال عباده لأنهم يكتسبونها ، ولا يكتسب العبادُ الأفعال اضطراراً بسبب علم الله بها ، يعني ان المعلوم لا يتبع العلم . فالله يعلم منذ الأزل فان عبده سيكتسب فعل الخير فيقدره بإرادته ، ويعلم انه سيكتسب فعل الشر فيقدره أيضاً بإرادته سبحانه .

ولقد مَنَّ الله علينا ان وهبنا القدرة على تصور هذه الحقيقة فأننا نوقن حق اليقين - بما أحسن الله الينا من صفة العلم والإرادة ـ ان الإرادة تتبع العلم . فلو علم الإنسان كيفية تكوين (تحفة) معينة ، فانه بإرادته - لكونها تتبع علمه - سيخطط ويبرمج لتكوين التحفة ، ثم ان قدرته - لكونها تتبع إرادته - تقوم بتكوينها وفاقاً لما هو مخطط .

والله الذي خلق المكان والزمان ، يعلم بعلمه الازلي جميع الحوادث التي تمر بنا ، سواء أكانت بإرادتنا ام بغير إرادتنا . والقَدر هو خلق تلك الحوادث بإرادة الله الكلية وتثبيته في اللوح المحفوظ بناء على علمه الازلي . هذا التقدير والتثبيت يتعلق بالعلم ، والعلم يتعلق بالمعلوم .

بناء على ذلك ، اذا اختار انسان - بإرادته الجزئية - العبادة ورجحها على ترك العبادة فان الله تعالى يعلم بعلمه الأزلي انه عابد وبذلك يقدر ، وليس العكس صحيحاً .. اي ان ذلك الإنسان لا يكون عابداً لان الله قدر له ذلك . وتكون أفعال الإنسان المتعلقة بالشر على القياس نفسه .

لنأت بامثلة اخرى:

- افرض ان قائداً عسكرياً التقط صوراً من موقع مرتفع لجنوده وسجل اصواتهم باجهزة حساسة . ثم دعى بعض الجنود المخالفين لمحاسبتهم على أفعالهم، واراهم صورهم واسمعهم اصواتهم على

اشرطة التسجيل . فاذا بجندي قد استحق العقوبة على أفعاله واقواله ، أنبرى يدافع عن نفسه بقوله: «لماذا ثبت على السوء في حركاتي وأقوالي؟». ألا ترى ان دفاعه هذا باطل ؟ ألا تراه يستحق العقوبة ؟ ذلك لأن التثبيت يتبع الحادثة ولا تتبع الحادثة التثبيت . ثم لنتساءل : هل ثمة فرق (من جهة التأثير في الاحداث) بين تثبيت الاحداث في لحظة وقوعها وبين تثبيتها قبل وقوعها ؟ لو كان القائد المذكور في المثال على علم مسبق بأفعال واقوال الجنود (بالرؤية الصادقة مثلا) هل كان علمه هذا يؤثر في الأحداث ؟ أوَ ليس القَدَر أيضاً تثبيتاً في الازل لأفعال الإنسان كافة ؟

- مثال آخر : التلفزيون ينقل الينا احياناً صوراً فورية ، واحياناً اخرى صوراً مسجلة تعرض بعد حصول الأحداث. وكما ان اي اختراع ، أو علم كان ، هو اعلان لحقيقة سنَّها الله تعالى في الكائنات ، فان التلفزيون أيضاً ايضاح لحقيقة حفظ (الصور والاصوات) . ولو رزق الله تعالى الإنسان اختراع جهاز يثبت الأحداث التي ستقع مستقبلا، فسيكون ذلك مثالا مصغراً للوح المحفوظ . لنفرض أننا نملك شبيهاً لهذا الجهاز يعرض الماضي والحاضر والمستقبل . أترى يحق لنا القول - حين نشاهد فيه ذنباً لأحد اجدادنا أو جريمة سيجترحها

أحد احفادنا – : « لولا ان الجهاز ثبت ذلك لما كان جدي قد ارتكب الذنب ولا كان حفيدي سيقترف تلك الجريمة » ؟

ان الأعمال الماضية والآتية لبني البشر من آدم (عليه السلام) الى يوم القيامة مثبتة في اللوح المحفوظ . هذا التثبيت – الذي هو القَدَر الالهي – يتبع ما اكتسبه وما سيكتسبه بنو البشر من الأفعال ، اذ أن الأفعال مثبتة فيه كما سيقدمون بها ، وليس البشر يفعلون مجبرين ما هو مثبت في اللوح المحفوظ.

ويبقى ان تسأل من يدعي ذلك : « هل هو على علم بما كتب عليه من أفعاله المستقبلية (اي قدره) ؟ وكيف يتسنى له ان يتحرك وفاقاً لما لا يعرفه (إن كان مجبراً) ؟ ام تراه مجبراً على اتيان قسم من أفعاله وعلى ترك قسم آخر » ؟ .

نعم .. ان حقيقة «العلم يتبع المعلوم» واضحة وضوح الشمس وان الله قدّر بإرادته الكلية أي فعل يرجحه الإنسان بإرادته الجزئية ويخلق ذلك الفعل لحظة توجيه تلك الإرادة اليه .

امثلة أخرى :

لنفرض أن أحد المعلمين بفراسته المستندة الى تجارب سنوات في التعليم، يعلم مدى التزام طلابه بالدوام ويقدّر الدرجات التي

سيحصلون عليها ، ويثبت علمه هذا بإرادته في دفتر ملاحظاته منذ بداية السنة . ثم تبين بعد الامتحان أن النتائج مطابقة لما دونه المعلم في دفتره .. فخاطب تلاميذه : « كنت أعلم بنتائجكم منذ بداية السنة» ، فهل يحق لمن نال درجة ضعيفة منهم ان يحتجّ قائلا : «ما ذنبنا نحن اذن ؟ لو علمت أننا سننجح لكنا اجتزنا الامتحان» ؟! . .

ان معرفة المعلم بالتلاميذ الذين سينجحون أو لا يجتازون الامتحان هو «علم» ويدل على كماله . والاجتهاد أو اهمال الدروس هو «المعلوم» لذلك فان العلم كان يتعلق بالمعلوم ، ولو كان المعلوم يتبع العلم لكان المجتهدون مضطرين الى الدراسة شاؤوا ام أبوا ، ولكان المهملون مضطرين الى اهمال الدراسة شاؤوا ام أبوا ، أيضاً . اي ان علم الاستاذ كان سيجبر قسماً . من التلاميذ على الدراسة وقسماً آخر على اهمال الدرس !

لنتصور رجلا مرَّ أمام قاض من أولياء الله فانكشف له بكرامته وفراسته انه (اي الرجل) ماض لإرتكاب سرقة وقد قدّر عقابه وسجل ذلك . ثم قدم الرجل الى المحكمة بعد قليل لإرتكابه تلك الجريمة ، فحكم عليه القاضى بالعقوبة التي قدّرها وخفض جزءاً من العقوبة . في هذه الحالة على السارق ان يشكر القاضي ويحفظ جميله . لنفرض ان

القاضي أخبر اللص وهو يهم بالخروج من قاعة المحكمة : « كنت اعلم أنك سترتكب السرقة وقد قدرت عقوبتك مسبقاً » ، أترى يحق للسارق ان يرد : « ما ذنبي اذن ؟ لقد ارتكبت الجرم لانك علمت به ، لذا فاني أطلب البراءة !! ».

لكي لا نقع في الموقف المضحك هذا ، يجب ان لا نلصق بالقَدَر أعمالنا السيئة التي نرتكبها بإرادتنا الجزئية.

كان النبي (صلى الله عليه وسلم) على علم بفتح القسطنطينية ، وباشراط الساعة ، وقد أخبر امته بذلك، وعلمه هذا تابع للمعلوم ، ولذلك نثني على السلطان « محمد الفاتح» لفتحه القسطنطينية ، وننفر من الذين يخوضون في الفتن التي تحصل قبل قيام الساعة . فلو كان المعلوم تبعاً للعلم لوجب القول بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد فتح القسطنطينية أو سبب– حاشاه – في حصول فتن الساعة .

ومن المحتم ان الله المنزّه عن الزمن ، المحيط بعلمه الأشياءَ كلها ، يعلم الأحداث التي ستحصل للإنسان مستقبلا وعلمُه هذا لا يخلصه (الإنسان) من حمل المسؤولية . والذي يدعي العكس يوصلنا في النهاية الى النتيجة الآتية :

«حتى نكون مسؤولين عن أفعالنا يجب ان لا يعلم الله سبحانه – وحاشا لله – بالأحداث مسبقاً ، يعني أن لا يعلم العليم المطلق بأفعالنا المكتسبة الا بعد وقوعها ، ثم يقدر الثواب والعقاب !! » . والذي يقول بهذا ينقاد الى نتيجة خاطئة وهي : عدم التفريق بين علم المخلوق وعلم الله الازلي الذي اخرج المخلوقات من العدم الى الوجود ، متعامياً عن الحقيقة الساطعة سطوع الشمس بان العلم المكتسب لاحقاً ما هو الا علم المخلوقات .

ومن المفيد ان نوضح هذه الحقيقة بايجاز قبل اغلاق الموضوع :

«ان الازل ليس طرفاً لسلسلة الماضي كي يُتخذ اساساً في وجود الاشياء ويُتصور اضطراراً بحسبه، بل الازل يحيط بالماضي والحاضر والمستقبل »[1] .

نعم .. ان علم الله ازلي . هذا العلم الازلي يحيط بالأحداث كافة، في الماضي والحاضر والآتي ، ولهذا السبب لا فرق بالنسبة الى علم الازل بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وليس بإمكان العبد حتماً ان يدرك كنه هذا العلم المختص بالله تعالى كما يليق به وكما هو حقيق . لكن سنحاول

[1] الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة/ ٢٦، المبحث الثاني.

النظر من بُعد الى بعض اشعاعات هذه الحقيقة الساطعة كالشمس ، بالامثلة :

من المعروف ان «الماضي» و «المستقبل» من الحقائق النسبية « كالبعد والقرب » أو « الكبر والصغر » ، اذ يرد ذكر المخلوقات بنسبة بعضها الى بعض بهذه الاسماء من غير ان يكون لها وجود في الخارج[1] .

فلو قارنا الفيل بالشاة قلنا أن الفيل « كبير» ، والشاة «صغيرة» ، واذا قارنا الشاة بالنحلة صارت الشاة «كبيرة» والنحلة « صغيرة ». اذن الشاة صارت «كبيرة» و «صغيرة» بالنسبة الى مخلوقين آخرين . وهكذا الماضي والمستقبل حقائق نسبية . فالقرن العاشر «مستقبل» بالنسبة الى القرن التاسع ، و «ماضي» بالنسبة الى القرن الحادي عشر . ومثل جميع الحقائق النسبية ، فان الماضي والمستقبل يقيد المخلوقات فقط . اما الله خالق جميع المخلوقات فانه منزهٌ عن الأرتباط بمثل هذه المفاهيم ، اذ لا فرق لدى قدرته تعالى بين الذرات والكواكب .. كذلك لا فرق لدى علمه بين الماضي والمستقبل ، فالله يعلم بعلمه الازلي ما سيحصل في المستقبل الى

[1] أي ان الحقائق النسبية حقائق لها وجود في الذهن وليس لها وجود خارج الذهن، اذ ليس لها شكل أو طول أو عرض أو لون أو وزن أو طعم (المترجم)

جانب علمه بما يحصل الآن أو ما حصل في الماضى . ونذكر بان كلمة «المستقبل» ها تنصرف الى حصول الحوادث ، ولا تنصرف الى علم الله الذي يعلم بها مسبقاً .

ولنأت بمثال لتوضيح هذه الحقيقة العميقة الدقيقة :

*لنتصور ثلاث وسائط نقل مختلفة تسير في الطريق بين أرضروم واستانبول وهي قطار وباص وسيارة صالون. القطار يسير في مكان قرب مدينة (أرزنجان)، والباص قرب مدينة (اسكى شهر) والسيارة الصالون على وشك الدخول إلى (استانبول)[1] .

هنا يكون القطار في نقطة الماضي بالنسبة إلى الباص لانه اجتازه منذ ساعات عديدة ، وتكون السيارة الصالون في نقطة المستقبل لأنه سيصلها بعد ساعات عديدة ، ان الماضي والحاضر والمستقبل كحقيقة نسبية تسري على هذه الوسائط الثلاث، لكنها لا تقيد الشمس التي تسطع على تلك الوسائط في نفس اللحظة وتحتويها ، فنور الشمس الذي يغمر الطريق كله بين ارضروم واستانبول ، يغمر السيارات الثلاث في

---

[1] ارضروم وارزنجان واسكي شهر واستانبول اسماء مدن يمر بها المسافر تباعاً اذا سافر في هذا الطريق (المترجم).

آن واحد، ولكون الشمس منزهة عن السير في الطريق بين المدينتين المذكورتين آنفاً ، فانها لا تُقيَّد بتلك الحقائق النسبية التي تقيد الوسائط المتنقلة على ذلك الطريق.

هكذا نجد المخلوقات - الساعية في دروب الزمان - متخلفة في الماضي، أو مشهودة في الحاضر أو متقدمة في المستقبل، فان اجدادنا - ونحن نعيش هذه اللحظة - تخلفوا في الماضي، في حين ان اجدادهم في فترة ما ، كانوا ينتظرون الأحفاد في المستقبل، وكما جاء اجدادنا من المستقبل ومرّوا متنفسين بالحاضر ، ثم أنسابوا إلى الماضي ، كذلك ستنحدر يوماً إلى بحر الماضي .

أما الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء ، فانه منزّه كلياً عن الحقائق النسبية التي تفيدنا - نحن العباد - اثناء سعينا في دروب الزمان كالماضي والحاضر والمستقبل، وان كل الأشياء التي وجدت ، والتي ستوجد ، هي موجودة في علم الله الأزلي ، وحين يحل أوان أي منها ، فانها ترسل الى الدنيا ، اي تخرج من دائرة العلم الى دائرة القدرة .

❋ **مثال آخر** : اذا حفظت قصيدة كاملة فإن علمك يتعلق بابيات القصيدة كلها على حدّ سواء ، اي ان علمك يحيط بالابيات جميعها كما يحيط نور الشمس في مثلنا السابق بالوسائط الثلاث في اللحظة نفسها .

غير أن أبيات القصيدة فيما بينها تتقدم أو تتأخر عن بعضها البعض. فالبيت السادس يتأخر عن البيت الرابع ويتقدم على البيت العاشر . فلو انهيت كتابة الابيات الخمسة الأولى من القصيدة ، وهممت بكتابة البيت السادس ، فان البيت الرابع اصبح مكتوباً أي ماضياً ، والبيت العاشر لازال في المستقبل لم يخرج الى الوجود بعد ، رغم وجودها في علمك . اذن السابق واللاحق ليس موضوع بحث بالنسبة الى علمك.

هذان المثالان هما بمثابة منظار صغير وهزيل نطلع خلاله على حقيقة: ان لا فرق بين الماضي والحاضر والمستقبل لدى العلم الازلي للعالم المطلق والقادر على كل شيء ، في تعلقه بالأشياء.

والحاصل: « ان الازل مَثَله كمثل مرآة مشرفة من فوق ، على الماضي والحاضر والمستقبل ومحيطة بهم جميعاً » ، والمقصود بالمرآة هو العلم ، كلما انخفضت ضاقت ساحة احاطتها ، وعلى درجة ارتفاعها تنفسح الساحة. ومرآة علمنا هي أوطأ المرايا، تليها مرايا الأولياء على درجاتهم؛ فأولئك يعلمون شيئا ما عن المستقبل بلطف من الله واعجاز منه . اذن ، فالأزل في معنى من معانيه هو (علم الله) الذي يحيط بالماضي والحاضر

والمستقبل دفعة واحدة ، ولا يكون السابق واللاحق واردا بالنسبة اليه .
واذا اردنا ان نعبر عن هذه الحقيقة ملخصة نقول :

ربنا الجليل يعلم ما اكتسبنا وما نكتسب الآن وما سنكتسب من الأفعال جميعاً بعلمه الازلي ، واذا نقول : بان «علمه يسبق الحوادث» يجب ألا يغيب عن بالنا أن مفهوم (السابق) و (اللاحق) منسوب الينا وليس اليه تعالى.

الخير والشر من الله تعالى

●الله تعالى خالق الخير والشر :

ان الله تعالى هو خالق جميع أفعال الإنسان الإختيارية سواء أكانت خيرا أم شراً ، فلا خالق الا هو ، ولكن الإنسان هو الذي يختار الخير والشر ، ولذلك يسأل عن عمله . ولتوضح ذلك بمثلين :

❋ان الله هو الذي منح الإنسان قدرات ملائمة للروح الإنسانية ، وحدد طبيعة العلاقة وأسسها بين الروح والعيون ، وكذلك بين العيون والشمس ، وقدّر نتيجة العلاقة بالرؤية ، وذلك بدخول النور الى (مصنع) العيون كمادة أولية . في هذه الأفعال ليست لإرادة الإنسان وقدرته أي دور ، اذن ، ان فعل الرؤية من خلق الله وحده . غير ان الله حرّم النظر الى امور وأحل النظر الى اخرى ، فاذا نظر الى ما حرم فقد فعل الشر ، والخالق في كلتا الحالين – اي خالق فعل الرؤية المؤدي الى الخير أو الى الشر – هو الله جل جلاله .

❋ان خالق فعل المشي هو الله . فالله الذي ربط الارض بالشمس بقانون الجاذبية الالهي ؛ خلق العلاقة نفسها – وبشكل أكثر تعقيداً

وتكاملا - بين الإنسان ورجليه وسائر أعضائه . وكما ان الارض تدور حول الشمس من غير إرادة منها ، كذلك تقوم الأرجل بفعل المشي من غير أرادة منها ، فهي تتجه الى الهدف الذي يختاره الإنسان . أما الفرق بين سير الإنسان ودوران الأرض حول الشمس فواضح ، اذ لم يمنح الله الأرض حرية في اختيار الدوران وكيفيته حول الشمس ، لذا فهي تدور منذ مليارات السنين في الفلك المرسوم لها ، في حين انه ترك الإنسان حراً في اختيار اتجاه سيره وحسب أرادته الجزئيه . ورغم ان الله خلق فعل المشي ، ولكون الإنسان يختار اتجاه سيره ؛ فانه مسؤول عن ذلك الفعل ، فاذا سار فيما أمر الله به فقد فعل خيراً ، وان سار فيما نهى الله عنه فقد فعل شراً .

ونقيس باقي أفعال الإنسان على هذين الفعلين ونعلم بذلك ان كون الخير والشر من الله تعالى ، ، يعني انه خالق جميع أفعالنا.

الهداية والضلالة :

بما ان الخير والشر من الله تعالى ، فهو الذي يوصل الإنسان الى الهداية أو يوقعه في الضلالة ، وليس بنو البشر سوى اسباب لإضلال - أو هداية - بعضهم بعضاً . وقد يقول من يخطيء الفهم في مسألة : أن الله

هو خلق الهداية والضلالة فيردد : « ان الهداية من الله فان لم يجعل الله لبشرٍ نصيباً فانه لن يتبع طريق الاستقامة » ، فيوصد بذلك ابواب الوعظ والارشاد ! فوق انه يبحث عن تبرير لأخطائه !

بادىء ذي بدء ، نؤكد ان الله يهدي من يشاء . فهو وحده يوصل الإنسان الى السعادة بالهداية ويلقيه في الشقاء بالضلالة.. لكن الله يخلق الضلالة لعبد من عبيده بسبب سوء استعماله لإرادته الجزئية ، حيث لا يسوق الله عبده الى الضلالة الا اذا وجه ذلك العيد قدراته اليها ، وهكذا الامر بالنسبة الى الهداية .

وكما ان من يتخذ جميع اسباب الرزق ينتظر النتيجة من الله جلت حكمته ، لكونه هو وحده الرزاق ، ولكون اتخاذ الأسباب لا يعني حتمية الحصول على الرزق ، كذلك لا يمكن ان ينظر من قام بتبليغ أوامر الله ونواهيه على أفضل صورة الى نتيجة عمله كشيء محتم ، لكونه هو وحده الهادي جل جلاله.

ان معنى « يهدي الله من يشاء» ، يفيد ان الله يهدي – ان شاء – من يتخذ اسباب الهداية. ومحال ان يفيد « بعدم لزوم مراعاة اي سبب من اسباب الهداية » ! ومن يظن ذلك فهو يشبه الذي ينتفر جني المحصول دون ان يبذر بذرة واحدة.

ويتوجب علينا توضيح نقطة اخرى :

ان من لا يبذر بذرة يستحيل عليه جني الثمار : غير ان الذي يتخذ أسباب الجني على أتم حال لا يضمن ذلك حتماً ، فقد يكون احتمال حصوله على الناتج بنسبة ٩٩ ٪ وتبقى نسبة ١٪ لأسباب الجفاف والبرد والسيول أو ما شابه ذلك من النوائب . ومهما تكن نسبة عدم الوصول الى النتيجة قليلة فان وجودها يحقق اللجوء الى كنف الله والتضرع اليه ، ولهذه الحكمة وجدت، ويمكن قياس مسألة الهداية على هذا المثل .

● كون الحسنات من الله والسيئات من النفس الإنسانية :

ان الأمثلة مناظير (تلسكوبات) تقرب كواكب الحقيقة ، لذا نضرب هذا المثل :

لنفرض أن أحد السلاطين سلم لموظف من موظفيه اموالا طائلة ، وامره ان يطبع بها القرآن الكريم وينشره ، وان يبني بها جامعاً كبيراً لاداء الصلاة ، وان يقيم كلية دينية لنشر العلم ، وان ينشىء معسكراً لتدريب الشباب لصد العدو ، فهل من حق هذا الموظف ان يدعى أنه صاحب كل هذه الأعمال الحسنة عند تنفيذه أوامر السلطان ؟ أيجرؤ على

القول : « انا طبعت القرآن الكريم ونشرته، وبنيت الجامع، واقمت الكلية الدينية، وانشأت المعسكر ؟» لكنه لو تصرف على العكس ، فنشر بدل القرآن الكريم كتباً تفسد العقول وتدعو الى ازالة اسباب المودة والإحترام في المجتمع ومحو المواهب الشخصية وهدم الاعتبارات الاخلاقية ، وأقام بدل الجامع اماكن تسقط الناس في مهاوي الرذيلة والفساد وتولد بينهم اسباب التناحر وتقطع أواصر المحبة والأخوة فتزلزل أركان الحياة الاجتماعية ، فهل يجرو هذا الإنسان على القول : «ان السلطان فعل كل هذه الأمور ، لانه أعطاني الاموال التي بها فعلت ذلك» ؟

فالسلطان في كلا الحالين هو الذي اعطى المال ، فإن استعمل للاغراض التي عينها فاليه يرجع الفضل والشرف ، وان استعمل لاغراض معاكسه فالى من اساء يرجع السوء .

نعود فنقول: ان الله منح الإنسان اجهزة عجية، مثل؛ العقل والذاكرة والخيال واحاسيس متنوعة ، كل منها تفتح عوالم مختلفة كالبصر والسمع والخوف والحب . كما احسن الى الإنسان اذ وهبه جسداً تركَّب فيه كل ذلك بامثل وسيلة ، وسخّر له الكائنات جاعلا الدنيا سكنه . وإنه إذ قدر بإرادته حجم عين الإنسان ومجال رؤيته ومداها ، حدد بحكمته ما

يجب ان ينظر اليه، وما يجب ان لا ينظر اليه ، وترك ترجيح احدهما لإرادته الجزئية . وكذلك بالنسبة لما يجب ان يستمع أو لا يستمع اليه ، أو يتكلم أو لا يتكم به . وقد بين ان من يستعمل الأعضاء والأحاسيس حسب أوامره يكافأ بالسعادة الابدية في الجنة.

فلو استعمل الإنسان ما منحه الله اياه من رأس المال فيما يرضيه ، فان ما ينتج عن ذلك من حسنات في الدنيا والآخرة هو من عند الله ، وتوجب شكر العبد عليها . وما ألطف التعبير عن حقيقة عدم كون الإنسان مالكاً حقيقياً للنعم التي تتعلق به بالجملة الآتية :

« لاتُبحث ما في عناقيد العنب اللذيذة من خصائص في سيقانها اليابسة»[1] .

ولاشك ان الإنسان يكون مسؤولا تمام المسؤولية عن الشرور الناتجة من استعمال لرأس المال على خلاف ما يرضيه سبحانه. رأس المال العظيم ، الذي احسن الله به اليه وتفضل ببيان كيفية استخدامه ، والخير الناتج من ذلك.

---

[1] المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي.

القَدَر والعدل

يمكن تعريف العدل بانه : احقاق الحق ، اي اعطاء كل شيء ما يليق به من الحق ووضع كل شيء في انسب موقع ومرتبة .

ولو نظرنا بأنعام[1] في الكائنات للاحظنا ان كل مكلَّف - بعدل تام - بما في وسعه . فقد ربط الله العادل الحكيم - ضمن الدائرة الواسعة لتجلي العدل- بالشمس من السيّارات ما يمكنها سحبها وجذبها ، وحمل الأرض من الاثقال ما في مقدورها أن تحمله ، وخلق من الاغصان والأوراق والثمار ما تستطيع الشجرة ان تحمله.

وتجلى هذا العدل أيضاً في تكليف الإنسان بما يقدر عليه من الأعمال بيسر وسهولة . وبما ان مميزات وخصوصيات جميع الموجودات قُدرت قبل خلقها في قدر الله ؛ فان ما نشاهده من تجليات هذا العدل تدلنا على وجودها في القَدَر الازلي: اي ان الله تعالى قدّر لكل شيء ما يستطيع ان يتحمله وخلق الموجودات وفاقاً لهذا القَدَر مبدياً بذلك تجلى عدله في الكون...

---

[1] أنعم النظر في الامر : أطال الفكرة فيه ..

لذا نود ان نقف على موضوع العدل للعلاقة الوطيدة بينها وبين القَدَر ، وبقصد اظهار عدل القَدَر في كل شيء حدث . وقبل ذلك نذكر ان الله العالم القادر منزه عن الجهل الذي هو ضد العلم ، والعجز الذي هو ضد القدرة ، وهو لكونه عادلا منزه عن الظلم الذي هو ضد العدل، واسناد الظلم -كاسناد الجهل والعجز - اليه (حاشاه) يؤدي بقائله الى الكفر ، فيجب الانتباه الشديد في هذا الموضوع .

ويمكن تعريف الظلم بصورة مختصرة بانه: «التجاوز على حقوق الآخرين» .. استناداً الى هذا التعريف : فالظلم محال على الله تعالى.. خالق جميع الأشياء ومالكها ، لان كل تصرفاته جارية في ملكه وعلى مخلوقاته . وبما انه لا شريك له ولا شبيه به ، فلا يمكن ان يقوم تجاوز على حقوق الآخرين. ونعلم ان جميع تصرفات الله العادل الرحيم في البشر يستند الى الحكمة والرحمة ، وان قهره لا ينصب الا على من يعصي حكمته ورحمته فقط . هنا يجب عدم الخلط بين القهر والظلم ، فان أحد اسماء الله الحسنى هو «القهار»، كما يجب عدم خلط الأمراض الدنيوية والمصائب بالقهر .

بعد هذا المدخل الموجز سنجيب أولا عن سؤال يردد كثيراً في موضوع القَدَر والعدل ، ثم نشرح باختصار تجلي العدل الالهي في الكون.

سؤال يتعلق بالعدل :

كثيراً ما يرد هذا السؤال الدائر حول موضوع القَدَر والعدل :

ثمة فرق في ظروف الامتحان بين رجل ترعرع في مكة ورجل ولد في بقعة منقطعة عن العالم ، مثلا في قرية نائية من احدى مناطق روسيا التي لا تعترف باي دين كان ؛ فكيف يعرف هذا الأخير الإسلام وأوامر الله ونواهيه .

والمقصود بهذا السؤال – وامثاله – بيان الفروق المستمدة من العدل الالهي في امتحان هذين الرجلين.

لنقف قليلا نقاط مهمة متعلقة بالموضوع ثم نصل الى الافتاء جواباً عن السؤال .

نقرر ابتداء ان «لا رحمة فوق رحمة الله .. ولا غضب فوق غضب الله» ولنتجاوز عن كون السؤال يبطن تبرير عدم الطاعة باتخاذ هذا الرجل المنقطع عن العالم مثلا ، اذ ان الظاهر من طريقة السؤال هو استجلاب

العطف عليه . فنقول ان الرجل عبد من عبيد الله ، ورابطتنا به محصورة بالإنسانية . اما الله عزَّ وجلَّ فقد خلقه من ماء مهين وصوّره على هيأة انسان برحمته وعنايته ، ومنحه العقل وزوده بكل ما يحتاجه من اجهزة مادية ومعنوية ليستفيد من دنياه التي سيتركها بعد حين . اذن لا أحد يشفق عليه أكثر من خالقه الرحيم.

عند البحث في مسائل القَدَر يجب ألا تغيب أبداً عن البال حقيقة هي: ان لكل انسان عالماً خاصاً نتيجة للاحوال المختلفة ، والمسائل التي يجابهها من قبل الافراد والعائلة والأقرباء ، والمشاكل الكثيرة في نطاق المعيشة ، والبناء الاجتماعي الخاص بالبلد الذي ولد وترعرع فيه. وستبدو آثار هذه التقسيمات الالهية (التي لا نشك اطلاقاً في عدلها وان كنا لا ندرك اسرار حكمتها تمام الادراك) في الآخرة : يوم العدل الأكبر كما بينه في سورة الزلزال (٧-٨) { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❊ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } .

ان ما يتراءى في الدنيا من احوال مفيدة تكون عبئاً على العبد تحت ثقل المسؤولية ، وما يتراءى عسراً ومشقة من الحوادث قد تكون - بشرط الصبر - وسيلة للغفران . فان بني البشر ينتظرهم ميدان الحشر الذي هو محكمة العدل المطلق ، تؤخذ فيها حقوق الحيوانات سواء من

الإنسان أو من حيوانات أخرى ، وحتى ان المؤمن يُسأل فيها عن حقوق الكافر .

والله العادل المطلق اذ يحق الحقوق الصغيرة للحيوانات فيما بينها بميزان حساس نجهل ماهيته ؛ وانه لابد ان يحاكم الإنسان بمعايير ذلك العدل المطلق .

ان الوسواس الذي يوسوس في صدور بعض الناس في مجال القَدَر والعدل الالهي ؛ حاصل لعدم تفكيرهم في يوم العدل. اذ لا يمكن ادراك العدل الالهي المتجلي في احوال امتحان العبد بحق ... بغير التفكير في يوم العدل الاكبر ، أي بحصر الذهن في هذه الدنيا التي تمثل منتصف الطريق .

ويجب أيضاً ألا يصرف عن الخاطر أن الذين يفترون على العدل الالهي سيساقون الى الحساب يوم العدل عندما يعاقب فيه عن ذرة من الشر، وان تبذل عناية فائقة في تصور ذلك . ومن احكام العقل التوجه بروح البحث الى تعلم المسائل غير المفهومة بدلا من الاعتراض عليها . فقد بلغ علم الطب - مثلا - مستواه المعروف في ايامنا ، انطلاقاً من الإعتقاد بأن الله سبحانه لم يخلق أي شيء كان في البدن من غير حكمة أو فائدة ، بالبحث عن وظيفة الاعضاء والعظام والاعصاب والاغشية ثم

الوصول الى النتائج المرجوة . وتصريح أيما طبيب بعدم فائدة عضو ما لا يعرف وظيفته ما هو الا اعلان عن جهله ، وجهله هذا لا يقوم دليلا على عدم فائدة العضو نفسه .

هكذا أيضاً بالنسبة الى من يؤمن بعدل الله العادل المطلق ... اذ يصل إلى الحقيقة بإيمانه واعتقاده في تجلي العدل الالهي في جميع الأحداث ، مع البحث عن اجوبة التساؤلات الطارئة على تفكيره في نطاق هذا التصور.

لقد بين الله تعالى بوضوح في القرآن الكريم انه لا يحمّل عباده بينا أكثر ما يطيقون بالآية الكريمة: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } (البقرة: ٢٨٦) . وهناك حقائق لا يصل اليها العقل وحده مثلما لا تطيق قوته البدنية بعض الأعمال أو لا تكفى قدرته المالية على انجاز بعض الأمور ، وهذه كلها تدخل ضمن مبدأ « عدم تكليف العباد الا ما في وسعهم ». ونذكر فيما يأتي بعض تطبيقات هذا المبدأ :

❋يصلي قاعداً من لا يقدر على الصلاة وقوفاً لشدة مرضه .

❋من لا يستطيع الصلاة قاعداً أو ايماء فتؤجل صلاته لادائها قضاء.

❋ لا يفطر من اكل طعاماً في صيامه ساهياً أو ناسيا .

❋ ليس على من اكره على تناول شيء من المحرمات حساب .

❋ لا يفرض الحج والزكاة على الفقراء .

ويمكن الاستزادة من هذه الحالات الدالة على ان الله سبحانه وتعالى عادل مطلق وانه لا يكلف عباده ما لا يستطيعون القيام به .

ان الله بعدله المطلق هذا ، يكون قد عيّن مسؤولية عباده حسب ظروفهم التي وجدوا فيها وقدرتهم على الاحاطة بالحقائق الإيمانية ، ووقوفهم على الاحكام الإسلامية مثلما عينها حسب قدراتهم البدنية والمالية . أن الله لم يحمّل عقول عباده أيضاً أكثر مما تطيق .

ولنفصل هذه الحقيقة قليلاً :

يعتقد الأحناف بان الله تعالى وهب البشر من العقل ما يدركون به أن لهذه الكائنات خالقاً ورباً ، ولكن ليس بمقدورهم ادراك الحقائق الإيمانية الأخرى أو الأوامر والنواهي الإسلامية بالعقل وحده ، اذ تدرك هذه الأمور بتبليغ الرسل والأنبياء.

ولكون الوظيفة الأصلية للإنسان في هذه الدنيا هي الإيمان بالله وطاعته ، فان ادراك وجود الخالق من ضمن طاقة العقل حتى في ادنى در جاته ... اذ يُعرف وجود خالق الكائنات ولو بعقل قليل غير كاف لسير الأمور الدنيوية بشكل لائق .

من جهة أخرى .. يتعرقل انجاز بعض الامور الدنيوية بيد واحدة ويمتنع انجازها بلا يدين ، ولو فقد شخص رجليه – زيادة على يديه –

فان ذلك لن ينقص من معرفته بالله تعالى.. فيقع عليه أداء عبادته لله حسب قدرته البدنية ، لمعرفته بسلطان الكون بعقله.

اذن فالانسان وُهب من العقل ما يمكنه به ان يجتاز به الامتحان ..ولم يكلف بالامتحان من ليس له عقل أو الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم.

بعد هذه الايضاحات ، لننتقل الى جهة الافتاء في المسألة المتعلقة بانسان يعيش في زاوية منقطعة من الأرض أو في بلدة يحتلها الكفار ، وآخر يولد ويترعرع في مكة ... كيف يتساويان في الحساب ؟ وكيف يتحقق العدل في امتحانهما اختلاف احوالهما ؟

يرى « الإمام الماتريدي»، امام الحنفية في مسائل الإعتقاد ، أن ذلك الإنسان مكلف بالإيمان بوجود خالق خلقه وخلق العالم ، ولا يسأل عن الحقائق الإيمانية الأخرى، أو الاحكام الإسلامية ، لعدم قدرته الوصول اليها بعقله . اما « الإمام الأشعري»، امام جمهور الشافعية في مسائل الإعتقاد ، فيرى ان هذا الشخص من أهل النجاة وان لم يؤمن بالله ومعظم علماء الكلام يميلون الى الرأي الأول.

وننقل هنا ما ذكره « عمر نصوحي بيلمن» عن هذه المسألة :

ان الذين يعيشون في زمن الفترة (اي الفترة بين الرسل) ، أو الذين لم يصلهم صيت النبوة ، مكلفون - أيضاً - بالإيمان بالله تعالى ، لكون قدرتهم العقلية وفطرتهم السليمة سبباً ودافعاً للتوحيد ولمعرفة الله. لكنهم لا يكلفون بالاحكام الشرعية ، لان مثل هذه الاحكام لا تدرك بالعقول ما لم تبلغ من قبل الأنبياء العظام

الفترة : تعني الانقطاع، وتطاق على الزمان الذي ينقطع فيه الوحي الالهي لانقطاع تتالي الأنبياء[1].

ومن المشهور اطلاق هذه الصفة على عيسى (عليه السلام) وخاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم). ويقال «أهل الفترة»، للذين يعيشون في مثل تلك الازمان ، ويقع في حكم «أهل الفترة »، من يعيش في شاهقات الجبال أو اصقاع الأرض المجهولة برغم وجودهم بعد ارسال الرسل وذلك بسبب عدم وصول الإسلام اليهم ، فلا يكلف هؤلاء بالاحكام الشرعية كالصلاة والصوم لعذرهم هذا .

[1] فتندرس معالم الأديان الحقة لانقطاع تتالي الأنبياء وفتور الرسالة وتختفي حقائق الإيمان (المترجم)

وثمة خلاف في مسألة كون الإيمان بالله فرضاً عليهم أم لا . يرى (الأشعري) ان مجرد العقل والنظر لا يكفي لمعرفة الله تعالى ، ويثبت وجوب الإيمان به بالشرع الشريف، لذلك فان «أهل الفترة»، لا يجازون بعذاب النار الناشيء من عدم الإيمان كما ينطق بذلك النص القرآني : {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } (الإسراء: ١٥).

لكن الأئمة الماتريدية يقولون: ان الإيمان بالله تعالى من مقتضيات الفطرة وبمقدور الناس ادراك توحيد الباريء عقلاً .. فلا يسلم لإنسان - أينما وجد وفي اي زمان كان - ادعاؤه عدم القدرة على الاستدلال بعقله على وجود مبدع عظيم وآلاف المخلوقات البديعة تجلب دقة نظره وانتباهه اليها دائماً .. والمقصود بنفي «العذاب» في الآية الجليلة هو عذاب الدنيا وليس عذاب الآخرة ، أو ان نفي العذاب في تلك الآية الكريمة منسوب الى حال عدم اجراء الاحكام الشرعية التي لا يمكن ادراكها ، ولا يشمل «نفي العذاب» ترك معرفة الله الممكن تحصيلها بالعقل . فبناء على ذلك لا يُعذر اي عاقل كان في ادعائه عدم معرفة الله.

ويرى بعض العلماء أن « أهل الفترة» ، أنواع ثلاثة :

الأول: من يصدق بالعقل والنظر بوحدانية الله رغم كونه في « زمن الفترة» ، فهذا من أهل الجنة.

الثاني: من يشرك بالله تعالى ، فهذا من أهل النار.

والثالث: من كان سادراً في الغفلة ، ذاهلا عن فكرة الالوهية ، فهذا هو موضوع الاختلاف[1] .

لقد تناول علماء آخرون في كتبهم أولئك الداخلين في نطاقي «أهل الفترة» ، شرحاً وايضاحاً . ولنقرأ وجهة نظر أحد العلماء المعاصرين :

(ان « أهل الفترة» يكونون من اهل النجاة، فلايؤاخَذون بخطاياهم في الفروع، بالاتفاق، بل هم اهل نجاة عند الامام الشافعي، والامام الاشعري، حتى لو وقعوا في الكفر وليس لهم اصول الايمان، لان التكليف الإلهي يكون ببعثة الرسل، ويتقرر التكليف بالاطلاع على البعثة. وحيث ان الغفلة ومرور الزمان قد سترا أديان الأنبياء السابقين، فلاتكون هذه الأديان حجةً على أهل زمن الفترة، فان أطاعوا يثابون، وان لم يطيعوا لايعذّبون، لانها لاتكون حجة مادامت مستورة غير ظاهرة.)[1]

وهنا قد يرد سؤال : ترى ما حُكم من سمع بالنبي(صلى الله عليه وسلم) ، وبما أرسل به ، ولكن سماعه كان بشكل مشوه غير حقيقي ؟

---

[1] عمر نصوحي بيلمن، موضح علم الكلام، ص ٨٢ .

[1] المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي.

جواباً عن هذا السؤال لننقل تصنيف (الإمام الغزالي) الذي صنف به أهل زمانه من النصارى والترك الذين ما كانوا قد أسلموا ، اذ يعتقد بأن الرحمة الالهية ستسع ان شاء الله غالب الروم والنصارى والترك . ويقصد بالروم والترك الذين يعيشون في الممالك البعيدة ولم تبلغهم رسالة الإسلام . ويصنف (الغزالي) عامتهم الى اصناف ثلاثة .

-صنف لم يبلغهم اسم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

- وصنف بلغهم اسمه ووصفه ومعجزاته ، وهؤلاء يجاورون ديار الإسلام أو يعيشون بين المسلمين وهم كفار وملحدون.

-وصنف يتوسطون الصفين المذكورين ، فهم لم يعرفوا أوصاف النبي وخصوصياته وان كان قد بلغهم اسم النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمعوا به ، بل كان سماعهم به منذ صغرهم : أن كذاباً - حاشاه - اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) ادّعى النبوة !. وهكذا كان علمهم برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، كما يسمع أولادنا اليوم أن الكذاب المدعو «المقفع» ادعى النبوة . ان حكم هذا الصنف هو حكم الصنف الأول نفسه لأنهم سمعوا بالنبي (صلى الله عليه وسلم) باضداد صفاته الأصلية ، وهذا لا يجعلهم يسعون للبحث عن الحق ، والتفكير في الحقيقة.

من طبيعة الإنسان ان يكون فيه ميل إلى البحث والاستطلاع . لكن العلم المتكرر بالنبي (صلى الله عليه وسلم) يشكل مشوه لا يهيء ارضاً سهلة لأظهار هذا الميل ، ولا يقوده إلى البحث والتفكير كما مرّ أنفا. وفي زماننا هذا يمكن التوسع في القاعدة ليشمل كثيراً من الناس ، بل في الواقع ان الإسلام لا يعرض على العالم بوجهه الحقيقي بسبب اهمال المسلمين في امور دينهم. ويتطرق بديع الزمان سعيد النورسي في مكتوباته إلى هذا الخصوص فيقول :

(ان الدين - ولاسيما الاسلام - يُستر بستار اللامبالاة في آخر الزمان، وان الدين الحقيقي لسيدنا عيسى (عليه السلام) سيحكم ويتكاتف مع الاسلام. فيمكن القول بلا شك ان ما يكابده المظلومون من النصارى المنتسبين الى سيدنا عيسى (عليه السلام) والذين يعيشون الآن في ظلمات تشبه ظلمات "الفترة" وما يقاسونه من الويلات تكون بحقهم نوعاً من الشهادة(الإستشهاد). ولاسيما الكهول واهل النوائب والفقراء والضعفاء المساكين الذين يقاسون النكبات والويلات تحت قهر المستبدين والطغاة الظالمين.

وقد بلغتني من الحقيقة: ان تلك النكبات والويلات كفارة بحقهم من الذنوب المتأتية من سفاهات المدنية وكفرانها بالنعم ومن ضلالات الفلسفة وكفرها، لذا فهي أربح لهم مئة مرة) [1].

الفقرات التي ذكرناها آنفاً تمثل خلاصة لرأي العلماء في هذا الخصوص، ولهذا السبب رأينا الإكتفاء بذلك وترك إيراد النصوص من مصادر اخرى ، ومن يرد التوسع في هذا الباب ، نُحِلهُ الى كتب علم الكلام ، وأخص منها : كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة) لعبد الرحمن الجزري، وكتاب (شرح الامالي) وكذلك (الشرح على الفقه الأكبر) وكلاهما من تأليف (علي القاري) .

ولنوضح جانباً آخر يتعلق بالسؤال :

ليس ثمة حكم في الإسلام يقضي ان من ولد وعاش في دار الإسلام يكون من أهل الجنة ! فالذي يتصفح التاريخ الإسلامي يعلم ان اليهود - جيران النبي(صلى الله عليه وسلم) في عصر السعادة- رفضوا الإسلام وماتوا وهم يهود . وفي عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، عندما كان الإسلام في أشد فتراته حيوية ، كان ثمة مشركون وكفارا في مكة. ولو وجب اسلام من ولد وعاش في مكة ، لوجب ان يسلم (ابو

[1] الملاحق، ملحق قسطموني ، بديع الزمان سعيد النورسي، ص١٤٧ .

جهل) أو (ابو لهب) عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) . ومعروف ان ابراهيم (عليه السلام) دعى أباه الذي كان يرعى أصنام نمرود ؛ فلم يجبه ومات كافراً . ولم تؤمن زوج لوط (عليه السلام) وكذا ابن نوح (عليه السلام) . وعلى نقيض ذلك نشأ موسى (عليه السلام) في رعاية بل في حضن (فرعون) الذي جحد الله وادعى الألوهية ، وكانت زوجته مؤمنة أيضاً .

اذن ، ان العبد الباحث عن ربه ، المتوجه اليه ... يلقى نور الهداية وان ترعرع في حضن فرعون ، وهو ان عمي عن الحق فلن ينجيه من الهلاك كونه ابن نبي أو أباه . وكم من الناس في البلدان الإسلامية بعيد عن الإسلام وغافل عن الله حتى يومنا هذا رغم آلاف الجوامع والمنائر والمؤذنين والاعراف والعادات الإسلامية ، بل رغم شواهد القبور التي تلقن الإسلام !

في خاتمة بحثنا عن أهل الفترة نقف عند سؤال قد يرد على الذهن وهو :

ما الحكمة في معاقبة الذين يجنحون الى الانكار والكفر (من غير أهل الفترة) رغم بلوغ ارشادات النبي (صلى الله عليه وسلم) اليهم على الوجه التام - بعذاب جهنم الرهيب - بسبب كفرهم ؟

من المفيد هنا ان نفكر في ماهية الكفر . الكفر ليست مسألة ترجيح سهلة ويسيرة ، اذ لا يكتفي الكافر باغماض عينيه عن رؤية بعض الحقائق فقط..! فموجودات الكون كلها من الذرات الى المجرات ؛ تشهد وتدل على وجود الله ووحدانيته بادلة لا حصر لها . فالذي ينكر وجود الله ، ينكر أيضاً شهادة هذه الكائنات جميعها دفعة واحدة ، ويتهمها كلها بالكذب !

ومن جهة اخرى فان كل وجود في الكون هو في حكم جندي أو موظف في جيش الخالق سبحانه ؛ لان كل شيء موجود بأمره ، ويتحرك بأمره ، ويبدي تجليات اسمائه الحسنى ، ويطيع أوامره . فالذي ينكر وجود الله يتهم هؤلاء الجنود والموظفين كلهم بالتسيب والانفلات وعدم الانضباط والعبث.. وهذه اهانة لكل الكائنات والموجودات. والقائد -اي قائد كان - يعاقب على الاهانات الموجهة الى جنوده ، ولو لم يتم العقاب فلن تهان عزة فقط ، بل عزة ذلك الجيش ، والدولة أيضاً.

ولنتابع عبارات (بديع الزمان سعيد النورسي) عن جوهر هذه الحقيقة :

(ان وجود جهنم وعذابها الشديد لاينافي قطعاً الرحمة غير المحدودة، ولا العدالة الحقيقية، ولا الحكمة الموزونة التي لا اسراف فيها، بل ان

الرحمة والعدالة والحكمة تتطلب وجود جهنم وتقتضيه، لأن قتل حيوان افترس مائة من الحيوانات او انزال عقاب بظالم هتك حرمات ألفٍ من الابرياء، هو رحمة بآلاف الاضعاف للمظلومين من خلال العدالة. وان اعفاء ذلك الظالم من العقاب او التجاوز عنه، وترك ذلك الحيوان الوحشي طليقا، فيه ظلم شنيع وعدم رحمةٍ لمئات المساكين بمئات الاضعاف، ازاء رحمة في غير موضعها. ومثل هذا ايضا، الكافر المطلق - الذي يدخل سجن جهنم - فانه بكفره ينكر حقوق الاسماء الإلهية الحسنى، اي يتعدى على تلك الحقوق.. وبتكذيبه لشهادة الموجودات - الشاهدة على تلك الاسماء - يتعدى على حقوقها ايضا.. وبانكاره للوظائف السامية للمخلوقات - وهي تسبيحاتها تجاه الاسماء - يتجاوز على حقوقها.. وبجحوده لانواع العبادات التي تؤديها المخلوقات تجاه تظاهر الربوبية والالوهية - وهي غاية خلقتها وسبب من اسباب وجودها وبقائها - يتعدى تعديا صارخا على حقوق جميع المخلوقات؛ لذا فالكفر جناية عظيمة وظلم شنيع تتجاوز بشاعته كل حدود العفو والمغفرة، فيحق عليه اذن تهديد الآية الكريمة {إن الله لايَغفِرُ أن يُشرَكَ به..} (النساء: ٤٨) بل ان عدم القاء مثل هذا الشخص في جهنم رحمةً

به هو أمر ينافي الرحمة منافاة كلية في حق هذه الاعداد الهائلة من المخلوقات والكائنات التي اُنتهكت حقوقها.

وهكذا مثلما يطالب اصحاب الدعاوي بوجود جهنم، فان عزة جلال الله وعظمة كماله سبحانه تطلبانها قطعا.

نعم، اذا قال سفيه او شقي عاص لحاكم عزيز للبلاد: «انك لاتستطيع ان تقذفني في السجن ولن تقدر على ذلك ابداً». متجاوزاً حده ومتعديا على عزة ذلك الحاكم وعظمته، فلابد أن ذلك الحاكم سينشئ سجنا لذلك السفيه المتعدي حتى لو لم يكن هناك سجن في البلاد. كذلك الامر في الكافر المطلق، فانه بكفره يتعدى بشدة على عزة جلاله سبحانه، وبانكاره يتحدى عظمة قدرته، وبتجاوزه يمس كمال ربوبيته، فان لم يكن هناك حتى تلك الاسباب الموجبة وتلك المبررات الكثيرة والحكم العديدة والوظائف الكثيرة لجهنم ولوجودها؛ فان خلق جهنم لمثل هؤلاء الكفار والقاءهم فيها هو من شأن تلك العزة وذلك الجلال)[1].

● تجلي العدل في الكائنات :

---

[1] الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ص٢٨٧-٢٨٨.

سنشرح باختصار تجلي عدل التقدير الإلهي في الكائنات لكون ذلك دليلاً آخر ان العادل الرحيم سيحقق عدله المطلق عند امتحان عباده أيضاً .

العدل يستند الى اسم الله تعالى «العادل». اذ ان الله تعالى له الاسماء الحسنى المستندة الى صفاته الثبوتية الثمانية أو التابعة منها ، وهي : الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام والتكوين.

ويروى أن الملائكة يعرفون أربعة آلاف من اسمائه الحسنى ويعرف الإنسان منها ألف اسم واسم ، وورد المشهور منها (٩٩) إسماً في الحديث الشريف .

لقد أحسن الله إلى الإنسان فمنحه العقل ليعرف به وجوده تعالى ، وكذلك ركّب فيه صفات مثل؛ الإرادة الجزئية والقدرة الجزئية والعلم الجزئي ليعرف بها صفاته واسماءه الحسنى. والإنسان بدوره يوصف باسماء نابعة من هذه الصفات ويشتهر بها اذ تتجلى فيه. وكما تتجلى الأشعة في مرآة توضع قبالة الشمس ، فان كون الإنسان حسن الخط يتجلى في رقعة يكتبها بخط جميل فيسمى عندند «خطاطاً» على المنوال نفسه ، يعرف ان من صنع ساعة يعلم كيف يصنعها .. فهو «عالم» ، ولانه رتب دواليبها بحكمة.. فهو «حكيم»، ولأنه قدر شكل وحجم

كل دولاب .. فهو «مقدّر».

وعندما تتطلع الى ساحة الكائنات بعين الإعتبار نعلم ان الأشياء كلها مخلوقة بقدرة غير متناهية .. فنقرأ فيها اسم «القدير» ، ونلاحظ انبثاق الأشياء كلها بميزان وقياس واعطاء كل ذي حياة ما تتطلبه حياته بالكفاية.. فندرك في الكون قاعدة احقاق الحق.. فنقرأ فيه اسم«العادل».

لنعرض أمرين من تجليات العدل الالهي التي لا حصر لها في الكائنات :

الأول : كل ذي حياة مُنح بعدل جميع ما يلزمه للاستفادة في الدنيا . فقد خلق الله كل حيوان راضياً عن حياته ، وحبب اليه رزقه الذي قدره، وخلق له بدناً يلائم كيفية حصوله على ذلك الرزق.

فمثلا : جعل ارواحاً جريئة ، وقدر ابدانا نشيطة ، ومخالب قوية ، وانياباً حادة ، للحيوانات التي قدر ارزاقها لحوماً. وخلق للحيوانات التي تقتات على الاعشاب وما شابهها - واغلبها صديقة للإنسان - أرواحاً انيسة واليفة ، وابداناً توافق أرواحها.

ان هذا تجل لطف للعدل الالهي، وتزيد هذه اللطافة جمالا ، نقطة اخرى هي : ان كل حيوان يعيش راضياً عن حياته كما لو كان انه وهب أجمل بدن في الدنيا ، وأعطي احسن رزق ، ومنح أحب خلف ووليد .

فمثلا : الضفادع التي تتخاطب بالنقيق مسرورة في وادٍ من الوديان ، راضية كل الرضا عن حياتها ، ولو نقلتها الى سراي «دولمة بقجة»[1] تكون قد سجنتها ! وكذلك الغراب يرفض مبادلة فرخه - الذي يربيه بعناية واهتمام - بفرخ صقر . وبامكانكم قياس الحيوانات الأخرى على ذلك.

أما الإنسان ، فقد خلق الله روحه سلطاناً لمملكة بدنه ، ووهبه قوى خارجية كالعين والاذن، وقوى داخلية كالعقل والذاكرة ، وجعل البدن الإنساني بشكل يسهل على الروح الانتفاع به واستخدامه. الى جانب هذه النعم ، سخرّ الكون وما فيه من موجودات لخدمته ، وزاد الله تعالى على كل هذا الإحسان احساناً آخر هو عدم منح اي حيوان كان الشعور بالحسد أو الغبطة تجاه الإنسان ! وليس على الإنسان ازاء هذا الإحسان والإنعام ما يفعله الا إعلان العبادة تعبيراً عن شكره وامتنانه . وما

[1] قصر عظيم من قصور السلاطين العثمانيين في استانبول (المترجم)

اجحد من يترك ذلك ناكراً العدل الالهي ومتعلقاً ببعض النعم الدنيوية التي وهبت لقسم من البشر لتكون وسيلة للتجربة والامتحان ! بينما لو عرض عليه ان يبدل عالمه الذاتي الخاص ، بروحه وعقله وتربيته ونظام اعتقاده وإيمانه وأبيه وأمه وأقربائه ، مع الشخص الذي يغبطه ..فيرفض المبادلة !.

اذن كما خلق الله الحيوانات راضية عن حياتها الدنيوية ، كذلك وهب لكل انسان عالمه الخاص في هذا العالم ، وحبب اليه عالمه ! .

الثاني : هو تجلي العدل الالهي في الكائنات (بالتوازن) المشاهد فيها. من المعلوم ان الحفاظ على نظام الجيوش ودوام حياتها يتحقق بالموازنة بين الملتحقين بها والمسرَّحين . فمن خلال هذا المنظار انظروا الى الحوادث الجارية في الكائنات ، ودققوا في الموازنة الموجودة في ارسال الله تعالى البشر الى الدنيا باسمه «المحيي» ، وتسريحهم منها باسمه «المميت». ثم نظروا الى الاحياء جميعها والتي يرسلها الله تعالى الى الدنيا بجنسين ذكر وأنثى ، والى الميزان الحساس الذي يوازن عدد البشر وطاقتهم للأكل وأرزاقهم ، وطبقوا الميزان نفسه على كل نوع من أنواع الاحياء واحداً فواحداً لتشهدوا هيبة العدل الالهي.

ولاحظوا أيضاً العلاقة الدقيقة بين وظيفة كل نوع من أنواع الأحياء في هذا العالم وقابلية تكاثره . تصوروا ـ مثلا ـ مدى الخلل في الدنيا لو سرى قانون التكاثر للأسماك على الاسود ؟ والتفتوا الى تجلّي العدل في العلاقة بين اختلاف العمر المقدر لكل نوع من الأنواع وعلى رأسها الإنسان وقانون تكاثره.

وانظروا كذلك الى الخلايا التي تدخل اجسامكم مؤدية وظيفتها ثم الى تسريحها كما يحدث في قدوم الأحياء الى الدنيا وهجرتها منها ، والى العدل الذي يتجلى في هذا التوازن ، في كل لحظة ، بدقة عظيمة في الاحياء جميعاً.

ثم فكروا في التوازن المتحقق بين موارد البحار والأنهر والعيون ومفقوداتها وفي الحفاظ على هذا التوازن .

هذه الامثلة تظهر الحقيقة جلية كالشمس : ان الله عادل مطلق كما هو حكيم مطلق . وهذا العدل الالهي نتيجة تقدير . إذ أن كلَّ هذه الأوضاع والحوادث المعلنة عن العدل الالهي بجلاء قد قدرت بالقَدَر الالهي وخلقت بموجبه . في هذه الحالة تكون الادلة الشاهدة على العدل في الكائنات دليلا على عدل القَدَر في الوقت نفسه .

ولنختم الموضوع بالتساؤل : لو كان الله غير عادل - حاشاه - فمن يكون عادلا ؟!! ان الإنسان بسبب علمه الجزئي غير قادر على فهم ماهية العدل ، وبسبب قدرته الجزئية غير قادر على تطبيق العدل . لذا فالعادل المطلق هو الله العالم المطلق والقادر المطلق ، والإنسان يكون عادلاً بمقدار خضوعه في حركاته للعدل الالهي .

أفعال العباد

أفعال العباد موضوع شرحه العلماء المتبعين لسنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) بتفاصيله وتفرعاته، واشبعوا هذه المسألة بحثا من كل جانب، سالكين الصراط المستقيم ، فلا يسلم من خالفهم من الوقوع في ضلالة الإفراط أو التفريط.

يورد (عبد السلام اللقاني) التصنيف الآتي لأفعال العباد :

توجد ثلاثة مذاهب بشأن الأفعال الإختيارية للإنسان :-

أ ـ مذهب أهل السنة :

وفيه ان حصة العبد في أفعاله الإختيارية الكسب فقط ، فالعبد ليس مجبراً على اتيانها ، ولا خالقاً لها .

ب - مذهب الجبرية :

وفيه ان العبد كالقش في مهب الريح ، غير مختار بل مجبر على فعل أفعاله .

جـ - مذهب المعتزلة :

وفيه ان العبد خالق لأفعاله الإختيارية بالقدرة التي وهبها له الله .

ونخوض نحن في الموضوع انطلاقاً هذا التصنيف ، فنشرح أولاً مذهبي (الجبرية) و(المعتزلة) ، والردود العقلية والنقلية عليهما ، ثم نورد

اعتقاد (أهل السنة) في أفعال العباد مقسمين اياه مذهبين كلاهما على الحق : (الأشعرية) و(الماتريدية) .

مذهب الجبرية

خلاصة مذهب الجبرية :

مذهب الجبرية هو أحد الإعتقادات الباطلة ، وضعه ، (الجهم بن صفوان) ، واتباعه ، في مواجهتهم لفرقة المعتزلة الذين ينكرون القضاء والقَدَر ، فقد وقعوا في الافراط ازاء تفريط المعتزلة . لقد وقع هؤلاء في الخطأ عندما حمّلوا القَدَر أفعال العباد جميعها والمتولدة من إرادتهم الجزئية واختيارهم، سواء أكانت خيراً ام شراً ، وادعوا أن الإنسان لا يملك إرادة أو حرية اختيار ، وذلك بقصد تنزيه الله تعالى عن الشرك والعجز . وهم اذ قصدوا تنزيه الله عن الشرك والعجز وقعوا من حيث لا يدرون في قبول نقص لا يليق بعظمة الوهيته كالظلم والعبث ! واسندوا اليه أيضاً ما يخالف الحكمة والمصلحة السارية في الخلق ، فحادوا عن مذهب الأمة ووقعوا في الضلالة.

وخلاصة مذهب الجبرية : ان الله قدر كل شيء قبل خلق الكائنات في علمه الازلي ، وقضى بالوجه الذي قدر ان يجري ذلك . وكما انه قدر الأشياء بعلمه وإرادته في الازل ، كذلك خلقها بفعله وايجاده . واذ ان أفعال العباد هي من الأشياء التي قدرها الله في الازل ، فانه يخلقها ويقضي بها كما قدرها . ولو ان الإنسان أوجد أفعاله الإختيارية فانه يكون موجداً وخالقاً ، بينما هذه الصفة خاصة بالله وحده . يعني ان أفعال البشر وحركاته مرتبطة بالتقدير الالهي الازلي لضرورة ان توجد

هذه الأفعال كما قررت لكون التقدير الألهي سابقاً لأفعال العباد ، ولا مجال ههنا لحرية الإنسان واختياره . فكما خلق خالق الكائنات حركات الجماد ونظمها ؛ فقد خلق حركات الإنسان ونظمها أيضاً ، ولا تأثير لإرادة الإنسان في هذه الجهة.

وهذا هو فكر الجبرية . ينكرون أثر الإرادة والاختيار في أفعال الإنسان. فهو حسب اعتقادهم قش في مهب الريح وليس ثَمَّ أرادة وترجيح . وهذا الفهم الباطل الذي يضم في طياته تناقضات كثيرة، يخالف العقل والمنطق ، كما يخالف العلم والحكمة .

لقد قوّض العلماء تماماً؛ بالادلة العقلية والنقلية ، الفكر الجبري البعيد عن الحقيقة ، حتى صار تخلخل هذا الفكر موضع استهزاء شائع بالقول « اضرب على قفا الجَبري فان عارض فقل : هذا قضاء وقدر .. ولنرَ هل يعذرك» ؟ .

ومن المفيد التذكير: انه لا توجد فرقة ولا مدرسة جَبرية قائمة في يومنا هذا ؛ لكن بعض الناس المغلوبين أمام نفوسهم يحاولون التملص من مسؤولية ذنوبهم بسوق ادعاءات تقرب من اراء الجبرية ، وسنوضح خطأ هذه الادعاءات في الصفحات القادمة.

الأدلة العقلية التي تفند مذهب الجبرية :

سنوضح في الفقرات الآتية ضعف هذا الرأي منطلقاً وعلماً واعتقاداً:

(١) ان الله تعالى منزّه عن الظلم . فكما ترى الجبرية : لو لم يكن لإرادة الإنسان الجزئية أي تأثير وكانت أفعاله كلها توجه بإرادة الله مباشرة فاننا نصل الى ان حكم ذلك العادل الرحيم - حاشاه – غير عادل. فان اجبار الله تعالى لعباده على فعل الشر ثم محاسبته اياهم والقائهم في جهنم رغم قهرهم على تلك الأفعال من غير إرادتهم ، هو اسناد للظلم اليه تعالى.

والإعتقاد بعدم تأثير الإنسان في أفعاله الإختيارية ، وكون هذه الأفعال توجد بخلق الله وحده يثير اسئلة لا مخرج منها ، ويوجب قبول محالات تناقض العقل والنقل ، منها :

مَن المسؤول عن جرائم الظلمة العظيمة من الكفار ، من أمثال؛ (فرعون) و(نمرود) ، الذين جرفوا كالسيل حقوق العباد بعصيانهم وكفرهم ؟ أنعتبرهم أبرياء بدعوى ان الله قهرهم على فعلها ؟ ام تراهم يتحاجون: « يارب .. كما ان إرادتنا الجزئية واختيارنا من عندك ، فجرائمنا أيضاً من عندك !! » ؟

فعلى هذا الرأي يجب اضافة الجرائم والمظالم والكفر في الدنيا كلها الى الله -(تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) - وهذا محال .

وبموجب ادعاءات الجبرية ، تشبه أوامر الله تعالى ونواهيه قولك لشخص ما ، بعد ايثاق يديه ورجليه والقائه في البحر « اياك .. ايك ان تبتل بالماء ! ». فكأن الله الجليل قد قيد إرادة عباده الجزئية بالجَبر والقهر ورماهم في بحر الحوادث الذي امواجه كالجبال ، وأمرهم بالنجاة من الغرق ، وأوعد هؤلاء المحكومين بالغرق بنار جهنم الأبدية في الآخرة ! ومن جهة اخرى فان منعهم من العصيان هو تكليف لا معنى له ، كقولك للرصاصة المنطلقة نحو الهدف: « احذري ان تصيبي الهدف ! ». هذه الرصاصة التي لا تعين اتجاهها بنفسها هي كالإنسان المحكوم بالقَدَر الذي لا يعين اتجاه أفعاله التي يقوم بها .

بهذه الامثلة ترون كم هي بعيدة آراء الجبرية عن العقل !

(٢) لو كان ادعاء الجَبرية بانعدام الإرادة الجزئية والمسؤولية لدى الإنسان صحيحاً ، فان تنزيل الكتب وإرسال الأنبياء يكون بلا حكمة ولا معنى ، فضلا عن إنقلاب الأوامر والنواهي القرآنية الى عبث.

مثلاً : ان لم يكن للمصلي إرادة جزئية فلا دور له في هذا الفعل لكونه يصلي قهراً وجبراً ، ففي هذه الحال لا يستحق ثناء الله تعالى عليه الوارد

في القرآن الكريم ، لقيامه بالعبادة قهراً وبلا إرادة له فيها ، يشبه ذلك رجلاً يأمر طفلاً يعمل لا طاقه له به ثم يمسك يديه قائماً بذلك العمل بنفسه ، ثم يهنيء الطفل على عمل لم يفعله اصلا !

ويقارن الموقف غير المعقول والفاقد المعنى لنواهي القرآن ووعيد الله تعالى بالعقاب لمن يقترف ما نهى عنه مع اجبارهم على ارتكابها ، بموقف ذلك الرجل لو منع الطفل عن القيام بعمل ، ثم اجبره على فعله وأراد معاقبته بسبب ذلك.

لاشك ان من يعتقد باسناد هذه الأفعال البعيدة عن الحقيقة ، وهذا البيت ، الى الله الحكيم ، هو من أهل الضلالة بحكم العقل والوجدان والحق .

ونختم هذه الفقرة بعبارات تجيش بالعلم والعرفان للإمام علي (رضي الله عنه) اثناء عودة هذا الإمام العظيم من حرب صفين ، أجاب عن اسئلة السائل الشامي لما سأله : أكان مسيرنا الى الشام بقضاء من الله وقدر؟

نورد قسماً مما قاله باختصار :

« ويحك ! لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حاتماً ، ولو كان كذلك البطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . ان الله سبحانه امر

عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلّف يسيراً ولم يكلّف عسيراً ، واعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعصَ مغلوباً ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل مكرهاً ، ولم يرسل الأنبياء لعباً ، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، و{ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار} »[1] .

(٣)هذا الإعتقاد يعكس الحكمة في الخلق الى عبث وظلمات ، لأن هذه الدنيا ساحة امتحان وتنافس ، وان مواقع ومقامات العباد في الدنيا والآخرة ، ودرجاتهم في الجنة ، ودركاتهم في جهنم ، ترتبط بإرادتهم واختيارهم وشعورهم واحساسهم . فما المقياس لتحديد درجاتهم في الآخرة لو وافقنا على اعتبارهم من غير إرادة ؟ أثمة مقياس لتمييز الأرواح الشبيهة بالألماس عن الارواح الشبيهة بالفحم الاسود غير استعمال الإرادة ؟.

هذا .. ومن الثابت بالعقل والعلم ان الإنسان يملك ادراكاً وعقلاً وشعوراً ، ومزود باحاسيس عديدة ، ولا معنى لمنحه هذه النعم مع

---

[1] نهج البلاغة ج٣ ص ١٦٧ ، شرح محمد عبده ، مطبعة الاستقامة – القاهرة .

سلب إرادته واختياره ! ونحن نعرف ان لا إسراف ولا عبث في الخلق.. اذن العبث والغلط هو في اعتقاد الجَبرية !!

(٤) ان هذا الإعتقاد الباطل عقلاً ومنطقاً يناقض الوجدان والوقائع اذ ان وجدان كل انسان يحس قطعاً بوجود إرادة واختيار وقوة وقدرة في نفسه... فأنا في هذه اللحظة أستطيع قراءة كتاب أرغب فيه مثلاً. ولا ارى عائقاً يمنعنى عن هذه الرغبة والحركة . آخذ الكتاب في يدي ثم احول فيه فكرى ولساني وعيني وابدأ بقراءة الفصل الذي اشاء. وحين أمارس ذلك اعلم بوجداني وفي ضميري ان احاسيسي جميعها تحت امرة إرادتي الجزئية ، واشهد ذلك . وعندما احس بضعف رغبتي في القراءة ابدأ بالمقارنة بين ترك القراءة والاستمرار فيها تمهيداً لإصدار قراري بأحد الأمرين ، وأتوصل الى قرار بعد تدقيق دوافع وأسباب كل منهما . التدقيق والمقارنة والقرار الذي توصلت اليه في علم الله منذ الأزل . أي انه معلوم عند الله تعالى ، وأعلم قطعا ان هذا العلم والتقدير لم يجبرني ولم يلزمني بترك القراءة أو الاستمرار فيه. ومن الطبيعي ان لا يكون ترجيحي لدوافع القراءة مجبراً لي على هذا العمل ولا لاغياً لإرادتي عندما وجدت دوافع القراءة أقوى من دوافع ترك القراءة، وقررت فعل

هذا العمل . انا واثق من قدرتي على مقاومة ضغوط تلك الدوافع (مهما كانت قوية) بإرادتي ، فانقيادي لتلك الدوافع أيضاً كانت بإرادتي. وهذه هي الإرادة والقدرة الجزئية ، ونطلق عليها «الميل» أو «الرغبة» وبهذا الميل أرجح أحد الخيارين كما في المثال المذكور آنفاً . ولو سألني سائل عند ترجيحي لأحد شيئين من جنس واحد « لمَ رجحت واحداً على الآخر وهما سواء في الصفات كلها ؟» .. لأجبته : « إني رجحت أحدهما على الآخر بإرادتي» واذ لا يوجد عائق مانع لترجيحي أحد الشيئين على الآخر ، فالقول باني مجبر على فعل ذلك هو انكار لحقيقة صارخة ، ووجود صفات مفضلة في شيء معين يكون سبباً لترجيحي اياه ولا يلغي إرادتي واختياري .

(٥) ان تقدير الله لأفعال العباد كلها في الازل لا يكون مصدر جَبر لهم بقهرهم على فعلها واتيانها ، وان علم الله في الازل بما سيفعله العبد بإرادته الجزئية هو من كمال علمه ، وليست ماهية هذا العلم الغاء إرادة الإنسان كما تدعي الجَبرية . ولقد وضحنا هذه المسألة فيما مضى بالقاعدة المشهورة : « العلم يتعلق بالمعلوم ». لذا نكتفي هنا باشارة مختصرة :

إن أعمالنا تعود الينا من جهة الإرادة ، وإلى الله تعالى من جهة الخلق ، اذ قدر الله تعالى اعمال الإنسان منذ الازل بالكيفيه الى سيقوم بها ، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ . فالله تعالى يخلق بإرادته الكلية وقدرته المطلقة عمل العبد ، بالكيفية التي يختارها العبد بإرادته الجزئية؛ فالإرادة الكلية لله تعالى تتوافق مع الإرادة الجزئية للإنسان في أفعاله الإختيارية.

والقول بالجَبر لكون الله خالقاً للأشياء التي نريدها غير وارد مطلقاً ! اذ ان الجَبر يعني؛ ان يقهرنا الله بإرادته على فعل مغاير لما نختاره بإرادتنا الجزئية . وكنتيجة نقول : ان علم الله تعالى أزلي ، وما كان وما سيكون معلوم في العلم الإلهي ، وكون الله عالماً بأفعال الإنسان قبل وقوعها، وتقديره بإرادته ذلك ، لا يعني قهرهم واجبارهم على تلك الأفعال ، لأن الله يعلم ما يرغب العبد ان يفعله بعلمه الازلي ، وعدم علمه محال ، والتفكير بهذا الاتجاه يعني اسناد الجهل إلى ربنا الجليل سبحانه .

ونذكر القارىء: ان علم الله بأفعال عباده الإختيارية منذ الأزل لا يرتب تأثيراً بالسلب أو الايجاب على فعل تلك الأفعال ولا يجبرهم على فعل شيء أو تركه ، بل يخلق الله الجليل بقدرته ما نختار من الأفعال بإرادتنا .

ونذكر اخيراً.. ان كل ما تقدم من الشرح يتعلق بالأفعال الإختيارية، وبديهي ان مسؤولية الإنسان في مجال هذه الأفعال فقط . أما الأفعال الإضطرارية الجارية رغم إرادتنا فانها مخلوقة بإرادة الله تعالى ولسنا مكلفين باية مسؤولية عنها.

الأدلة النقلية التي تفند مذهب الجبرية :

يقول الله تعالى : { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } (سورة البلد ٨-١٠) .

ويوضح « حمدي افندي الألماليلي»[1]

معنى الآيات قائلاً: (يبين الله بقوله {وهديناه النجدين} ، ارشاد الإنسان - ولغايات سامية - الى طريقين: احدهما يوصل الخير، والآخر الى الشر. في هذه الحال يكون الإنسان مكلفاً بعمل الخير ما وسعه ، وحماية نفسه وغيره من الشر، للتعبير عن شكره لنعم الله . فبالآية {وهديناه النجدين} يتوضح طريقان: طريق الخير يعني الهداية وطريق الشر يعني الضلالة).

---

[1] الالماليلي حمدي يازر ، حق ديني قرآن ديلي.

اذن فالإنسان في موقف اختيار أحد الطريقين بإرادته الجزئية ؛ وهو مجهز بالقدرات التي انعم الله بها عليه لسلوك ذلك الطريق ، فأن لم يكن للإنسان دور في هذا الاختيار أو كان ترجيحه محكوماً بالقَدَر - كما تدعي الجبرية - فكيف يفسر معنى {وهديناه النجدين} ؟ وما معنى هذا الرأسمال الموهوب للإنسان ؟.

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم : { إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا }(الدهر ٢-٣) والمعنى : ان الله أرشد الإنسان بسرده الادلة الكثيرة ، المشهودة في نفسه أو في العالم ، امام نظره وشعوره ، وافهامه من اين جاء والى اين سيرحل ، ووظائفه التي كلف بها ، وأي سبيل يسلكه ليبلغ مناه ، فإن شاء سلك سبيل الاستقامة شاكراً ربه ، وان شاء سلك سبيل الكفر جاحداً نعم الله ومفضلاً الدنيا على الآخرة .

هذه الآية واضحة جداً في بيان ترك الخيار للإنسان في الشكر أو الكفر . فتأمل مدى ابتعاد الجَبرية المدعين ان لا حرية للإنسان عن سبيل الحق . ثم تأمل ما الطف التعبير القرآني عن شهادة الوجدان الإنساني بخطأ ادعاءات الجبرية { بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ }(سورة القيامة ١٤-١٥) والمعنى : (ان الإنسان ليس مخلوقاً

جاهلاً باعماله بل هو مخلوق ذو بصيرة ووجدان يشعر بنفسه ، لذا فهو يشهد في وجدانه على أفعاله ، اذن ليقل الناس ما يقولون وليعرض هو نفسه ما يعرض من معاذير ، فلن يلقى في حضور الله الا حقيقة نفسه ، وستشهد نفسه ضد نفسه [1] .

فأي عقل أو وجدان يجرأ على الإعتذار من ظلمه وجرمه ، أو ظلم غيره وجرمه ، مستندا الى الجَبر والقَدَر وامام بصره هذه الآية ؟

ونضم الى الآيات المذكورة فيما سبق الآيات :

{جزاء بما كانوا يعملون} (السجدة :١٧)

{ جزاء بما كانوا يكسبون } (التوبة : ٩٦)

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } . (الزلزال : ٧-٨)

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } (البقرة : ٢٨٦)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تفيد:

---

[1] الالماليلي حمدي يازر ، حق ديني قرآن ديلي، ص٧٢.

ان الجزاء نتيجة اعمال الإنسان نفسه . لذا ستظل كل جهود الجَبرية ومن يفكر بطريقتهم عقيمة ازاء هذه الحقائق وقد ذكرنا بطلان رأي الجَبرية من جهة التناقض الحاصل بين العدل الالهي وتكليف الله عبادهُ ، المسلوبة إرادتهم الجزئية، ومحاسبته إياهم رغم قهرهم على الأعمال . وهذا واضح في الآية الكريمة: { انَّ اللهَ لا يَظْلِم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون } (يونس : ٤٤) التي تقلع ادعاءات من ينكر إرادة وقدرة الإنسان من الجذور ، وذلك بتنزيه الله العادل المطلق من الظلم ، وان الظالم لنفسه في الحقيقة ليس الا الإنسان ، وبتثبيت مسؤولية الإنسان عن اعماله .

وبعد ...

فهذه الامثلة من الأدلة النقلية بجانب الأدلة العقلية ، تشهد سوية على ان الإنسان صائب إرادة واختيار ، وان الله قطع اسباب المعاذير ، فلا جَبر ولا قَهر .

مذهب المعتزلة

نظرة سريعة الى مذهب المعتزلة :

من الفرق التي فرقت الأمة بعد عصر الصحابة مخالفين إعتقاد أهل السنة ، ويروى عن ظهور المذهب ان : واصل بن عطاء – وقد كان تلميذاً للحسن البصري[1] الذي هو من أعظم التابعين ، الجامع للعلوم الظاهرة والباطنة – ابتدر بالجواب قبل الحسن البصري في مجلسه ، حين

---

[1] **التابعون** : هم الذين لقوا أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) من المؤمنين . والحسن البصري أحد كبار التابعين. ولد في المدينة عام ٢١ هـ (٦٤٢م) وتوفي في ١١٠هـ (٧٢٨م) . امه جارية اسمها « خيرية» اعتقتها ام المؤمنين « ام سلمة» من ازواج النبي الطاهرات. ابوه موسى بن أويس القرني ، يعني انه حفيد أويس . حملوه الى عمر (رضي الله عنه) بعد ولادته فسماه «حسنا» لحسن صورته . وكانت امه تتركه عند ام سلمة (رضي الله عنها) لكثرة مشاغلها ، فكانت ترضعه وتدعو له ان يكون إماماً في المسلمين . وبذلك يكون الحسن البصري ابناً للنبي (صلى الله عليه وسلم) بالرضاعة . كان سيداً في العلوم كافة، وسيداً في عالم الروح. لقي الحسن البصري(١٣٠) صحابياً؛ منهم سبعة شهدوا بدرا .

سأله رجل عن رأيه في فرقة ظهرت تحكم بالكفر على مرتكب الكبائر [1]، يقصد الخوارج. فقال واصل : « مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً ، لأن المؤمن لا يرتكب الكبائر وهو مؤمن ، ولا يكفّر من يقر بحقائق الإيمان». قال الحسن : « قد اعتزل هذا رأينا» فسمي وأتباعه بعدها (المعتزلة) .

وثمة أربع مسائل أساسية افترقت فيها (المعتزلة) عن رأي (أهل السنة) :

(١)رفضهم صفات الله .

(٢) ردّهم القَدَر وادعاؤهم بعدم تقدير الله للكفر والشر والظلم وسائر المعاصي وعدم خلقه لها والقول بخلق العباد لأفعالهم .

---

[1] **الكبائر** : هي الآثام العظمى بين الآثام، وفي الحديث الذي اخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) عن ابي هريرة (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (اجتَنِبوا السَّبعَ الموبقاتِ . قيلَ : يا رسولَ اللهَّ وما هي ؟ قالَ : الشِّركُ باللهَّ ، والسحر، وقتلُ النَّفسِ الَّتي حرَّمَ اللهُّ إلَّا بالحقِّ ، وأَكْلُ الرِّبا ، وأَكْلُ مالِ اليتيمِ ، والتَّولِّي يومَ الزَّحفِ ، وقَذفُ المحصَناتِ الغافِلاتِ الُمْؤمِناتِ) . قال ابن عباس : ان الكبائر بضع وسبعون . والاعداد سبعة أو سبعون هي للتكثير وليست للحصر.

(٣) الإعتقاد بمنزلة بين منزلتي الكفر والإيمان ، فمرتكب الكبيرة عندهم يتأرجح بين الكفر والإيمان ، لا هو كافر ولا هو مؤمن.

(٤) الإعتقاد بان احدى الفئتين في معركة (الجَمل) و(صفين) على باطل لا محالة وتفسيقهم للفئة الباطلة مع عدم تحديدهم أي الفئتين على باطل .

وأساس رأي المعتزلة في أفعال العباد هو : ان الله تعالى جعل للعباد إرادة واختياراً يوجدون بها أفعالهم ، وان هذا من موجبات العدل للحكيم ذي الكمال . فلا يمكن ان يثاب العبد أو يعاقب الا على أفعاله الإختيارية التي يوجدها بنفسه ، الخير والشر متعلق بميل الإنسان ، ويمكن ان يجري في مُلك الله تعالى ما لا يريد !.

هكذا نرى ان المعتزلة – على الطرف النقيض للجبرية الذين ينكرون الإرادة الجزئية محملين القَدَر كل الامور – تتبنى القول بضرورة ايجاد الإنسان لأفعاله ليكلفوا بمسؤولتها ، وجنحوا الى الباطل باعتقادهم ان العبد خالق لأفعاله .

والسبب الذي قاد المعتزلة الى هذا الباطل انهم ـ على عكس الجبرية– لم يروا من اللائق لعظمة وجلال الله تعالى خلقه لأفعال الشر الصادرة عن العباد مع قبولهم بمسؤولية العبد عن أفعاله ، فقالوا بخلق العبد

لأفعال الشر ، وهذا جرهم الى القول الاخرق بخلق العباد للأفعال المباحة ، وادعوا ان الله يخلق الأفعال الإضطرارية التي تحصل خارج دائرة الإرادة الجزئية للإنسان ، اما الأفعال الإختيارية فيخلقها العبد . لقد جنح المعتزلة الى هذا الباطل لقصر فهمهم في كون الميل الى الشر وطلبه شراً بحق ، ولكن خلق الشر ليس شراً . وعدم إدراكهم ان في بعض الشر الجزئي خيراً كلياً . فلم ينتبهوا انهم اذ يحاولون تنزيه الله بقولهم انه لا يخلق الشر ، قد جعلوا لله الخالق الواحد شركاء بعدد البشر بالقول انهم يخلقون أفعالهم فوقعوا بهذه الغفلة في الضلالة ، كانهم استجاروا من الرمضاء بالنار .

وسنذكر الادلة العقلية ضد « خلق العباد لأفعالهم» مقارناً برأي الجبرية في نهاية البحث . اما الآن فنورد رد (التفتازاني)[1] على رأي المعتزلة في مرتكب الكبيرة ووضعه في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان:-

أكبر الكبائر؛ هو الكفر الذي ليس بعده كبيرة، وما دونه من الذنوب اضافية ، فهي صغيرة بالاضافة الى الذنوب الأكبر منها وكبيرة بالإضافة

---

[1] راجع شرح العقائد للتفتازاني ص١٨٨-١٩٣ بالتفصيل.

إلى الذنوب الأصغر منها ، لذا لا يخرج مرتكب الكبائر (عدا الكفر) من الإيمان ولا يدخل الى الكفر ، بل يعد (فاسقاً) - إلا المشرك - ان لم يستهن بذنبه ولم ير فعله حلالاً . ولانه لم يخرج من الإيمان بالله فقد اتفق علماء أهل السنة ، بل اجمعوا ، على الصلاة عليه ان مات ، وان الله يغفر له ان شاء وان مات قبل التوبة . وقد وعد الله تعالى بالمغفرة للتائب عن الذنوب كبيرها وصغيرها الا الشرك، كما ورد في الآية الكريمة: { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (الانعام :٥٤).

الرد على المعتزلة بأدلة نقلية :

ثمة مئات من الآيات الكريمة التي تنفي رأي المعتزلة - كما رأينا نفيها لرأي الجبرية - ننقل منها :

أمرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ان نجيب من ينكر القَدَر بالآية: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } (الحديد : ٢٢-٢٣) .

وتفسيرها: أنه ما من شيء يصيب الإنسان من حوادث أليمة ونكبات الا وهو مقدَّر بعلم الله الازلي ومكتوب في اللوح المحفوظ قبل خلق الأرض والإنسان، ولأن الله منزه عن المادة والمدة، فان تقديراً كهذا يسيرٌ ميسورٌ عليه . فاصبروا اذا أصابتكم مصيبة تفقدكم بعض النعم الدنيوية بالتسليم للمقدر ، لان الله قدر كل شيء في علمه الأزلي ، ولا يأخذكم العجب والغرور بما أحسن اليكم من نِعَم كأنها من عند انفسكم اذ هي من عند الله أيضاً ، فانه لا يحب كل مختال فخور.

والآية { واللهُ خَلَقَكُم ومَا تَعْمَلُونَ } (الصافات : ١٩) تناقض رأي المعتزلة في خلق العباد لأفعالهم ، مثلما ناقضت الآية السابقة انكارهم للقدر.

ويقول الله تعالى: {مَا فَرَطنا في الكتاب من شي ثم الى ربهم يُحشرون} (الانعام:٣٨). والمعنى: ان الله لم يترك شيئاً الا كتب في اللوح المحفوظ وثبت فيه شكل الأشياء وسعتها ، اماكنها وازمانها وارزاقها وآجالها ، وأباءها وامهاتها ان كانت من الاحياء، الخلاصة : اصولها وفروعها كلها. ثم بين سوق الاحياء جميعاً الى المحكمة الكبرى للحساب . ان هذه الآية نفي كبير لرأي المعتزلة في انكار القضاء والقَدَر وخلق العباد

لأفعالهم بإرادتهم واختيارهم ، فهي تبين تثبيت كل الأمور في اللوح المحفوظ وارتباطها بالقَدَر في العلم الالهي.

ويقول الله في الآية الكريمة: { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (الانعام:٣٩). والمعنى : ان الذين رفضوا الإسلام وكذبوا بآيات الله هم كالاموات ، صم وبكم يعيشون في جهل الكفر وضباب العناد ، والله يضل ان شاء من يسيء استعمال إرادته واختياره ، فتوجهه الى الضلالة ووقوعه فيها باختياره ، ويهدي من يشاء من عباده الى الإسلام، لميله الى الحق والحقيقة ، فيوفقه الى خير الأعمال.

بينا وقوع المعتزلة في الضلالة باعتقادهم بعدم خلق الله تعالى للقبح والشر ، وادعائهم خلق الإنسان لأفعال الشر ؛ تنزيهاً لله عن خلقها . . وقد تبين في الآية الكريمة السابقة بلا وجه للتأويل أن الله يضل من يشاء. لذا استقر رأي علماء أهل السنة أن الله وحده يخلق كل شيء سواء أكان شراً أم خيراً ، اذ بعد توجه إرادة الإنسان الجزئية الى الخير أو الشر ، يوفقه في الخير ان شاء، أو يضله ان شاء ، حسب توجه العبد. ولقد يفهم من الآية؛ ان المعتزلة والجبرية ينالهم شيء من ذم الله تعالى للصم البكم اللابثين في الظلمات ، المكذبين بآيات الله ، فمن كلمة « كذبوا» يستنبط

ان الناس هم الذين يقومون بالتكذيب ، ولا محل للجبر أو القهر كما يدعي الجبريون ، وفى نهاية الآية يبين الله تعالى انه يضل من يشاء فيظهر جهاراً مدى ابتعاد المعتزلة عن الحقيقة باسناد خلق الشر الى الإنسان. وهكذا يستحق أصحاب الإعتقادين كليهما : الملامة والذم .

ختاماً للأدلة المنقولة نورد آيتين كريمتين لتفنيد باطل المعتزلة في إنكار القَدَر :

{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } (الحجر :٢١) .

{انا كل شَيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } (القمر :٤٩) .

والتفسير : أن كل شيء قدراً مقدراً وماهية معلومة في العلم الأزلي لله تعالى قبل خلقها ويجري خلقها وفق ذلك القَدَر .

مقارنة بين رأي الجبرية والمعتزلة «الأدلة العقلية» :

ادعت الجبرية بقصد تنزيه الله تعالى من الشرك والعجز- في زعمهم- عدم وجود اي تأثير للإرادة الجزئية في أفعال الإنسان وجعلت الإنسان كالجماد في هذه الجهة ، فوقعت -كما بينا سابقاً - في ضلالة اسناد الكفر والشر والظلم الصادر من الإنسان الى الله !

اما المعتزلة ، فتقصد تنزيه الله تعالى عن خلق أفعال الشر ، ومع اقرارهم بمسؤولية الإنسان عن اعماله ؛ فقد توهموا ان للإنسان (الذي ينحصر دوره في الترجيح واكتساب الفعل) قدرة على خلق أفعاله الإختيارية بإرادته الجزئية فوقعوا في ضلالة الشرك ! وهم اذ ظنوا ان الإنسان يخلق أفعاله، قالوا: بعدم خضوع أفعاله الإختيارية للقَدر والقضاء. وهكذا أفرطت الجبرية بانكارها الإرادة الجزئية ، وفرطت المعتزلة بأنكارها القَدَر.

ولنكمل ايضاح رأي المذهبين في الإرادة الجزئية بالمثال الآتي :

لنتصور ميناء تصطف فيه سفن لسلطان البلاد، وتواجه الميناء هذا جزيرتان ، ولنفرض ان السلطان أمر ربابنة السفن بالسير الى الجزيرة التي تقع في اليمين وحرم عليهم السير الى الجزيرة التي تقع في اليسار ، وحتى يمتحن السلطان طاعتهم لم يضع عوائق أو حراساً يعرقلون التوجه الى الجزيرة الممنوعة.

كان السلطان قد جهز السفن باللوازم المطلوبة والسفن متماثلة في كل شيء ، والطريق سالك الى كلتا الجزيرتين ، هذا وقد جعل السلطان في الجزيرة المسموح السير اليها ما لذَّ وطاب من المسرات ، وفي الممنوعة وحوشاً مفترسة وعقوبات شتى. وفي قدرة كل ربان في هذا المثال

التوجه الى الجزيرة التي يريدها بتوجيه دفة السفينة اليها ؛ فيحملها البحر على ظهره ، وفي قدرة الربان أيضاً تبديل وجهة السفينة في أية لحظة اثناء السير بتغيير اتجاه الدفة معلناً التوبة في أية نقطة من الطريق ومبدياً خضوعه لأوامر السلطان في حالة مخالفته.

والآن لننظر ماذا تقول الجبرية والمعتزلة في هذه السياحة ؟

تدعي الجبرية ان ليس للربان اي دور كان في توجيه السفينة فهي تجري خارج إرادته وكأنهم بذلك لم يميزوا بين سفينة تسير بقيادة ربان وإرادته ، واخرى لا ربان لها تتقاذفها الامواج الضخمة في اعصار عظيم!

اما المعتزلة : فيقرون ان السفينة تسير بتوجيه ربانها وإرادته ، لكنهم توهموا ان في قدرة الربان تحريك سفينة تزن مئات الأطنان بنفسه ، ولم يعلموا ان دوره هو في توجيه الدفة فقط !

فبقدر ما أفرطت الجبرية في نفي إرادة الربان ، فرطت المعتزلة في الإعتقاد بقدرة الربان (الذي يقتصر دوره على التوجيه فقط) على نقل السفينة الضخمة الى الجزيرة بنفسه .

أما رأي أهل السنة فقد أتخذ الطريق القويم كما في المسائل الأخرى.

ويمكن تمثيل هذا الرأي تطبيقاً على المثال السالف ذكره بالقول : ان السفينة لم تتحرك بقدرة الربان ، والبحر لم يحملها بإرادته ، كل ذلك جرى خارج إرادته ، لكنه هو الذي حدد اتجاه السير بإرادته ؛ فهو الذي يعين الجزيرة التي يتم التوجه اليها .

فالسفينة هنا تمثل الإنسان ، والجزيرتان هما الجنة والنار ، والبحر هو الكائنات . فكل عضو وخلية في جسم الإنسان ، وكل نظام أو كوكب في الكون يتحرك ويؤدي واجبه بإرادة الله وقدرته ، الا ان الإنسان في أفعاله الإختيارية ليس رباناً ألقي في البحر موثق اليدين والرجلين ، بل يمكنه تعيين اتجاه الحركة لسفينة وجوده بإرادته الجزئية ، مقرراً بنفسه المنزل الذي سينزله .

رأي أهل السنة

●نظرة عجلى الى رأي أهل السنة

سلك أهل السُّنة مسلك النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام ، وخضعوا حرفياً لما يطابق القرآن . وأصحاب هذا الرأي من العلماء يقسمون الى فريقين : متقدمون ومتأخرون . . اذ يطلق على علماء أهل السنة في المدة بين عصر السعادة الى سنة (٣٠٠) هجرية : المتقدمون. وحين يقال السَّلف فالمقصود هم هؤلاء . ويطلق على علمائهم بعد سنة (٣٠٠) هجرية : المتأخرون . ولا إختلاف في الإعتقاد بين المتأخرين والمتقدمين ، غير انهم اختلفوا في تأويل المتشابه من آيات القرآن ذي الذكر المجيد . فالمتقدمون لم يؤولوا الآيات المتشابهات ولم ينشغلوا بمعانيها ، اما المتأخرون فقد اشتغلوا بتأويل المتشابه سداً لباب الفتنة الذي فتحه بعض من تكلم في المتشابه من القرآن من غير المؤهلين لتفسير معانيها مخالفين في ارائهم احكام القرآن القطعية مثيرين خطراً عظيماً على أُسس ديننا . مثلا سكت المتقدمون عن تفسير معنى «يد الله»، في القرآن الكريم ولسان حالهم يقول « الله أعلم بمراده» . اما المتأخرون

فقد ذكروا؛ ان الله منزه عن التجسيم والاعضاء و (يد الله) الوارد في القرآن تعني (قدرة الله) .

ويفهم من هذا المثال؛ ان المتأخرين لم يفسروا المتشابه من القرآن بمجرد الرأي والعقل ، بل في إطار القواعد الشرعية العامة ودسائر السُّنة الشريفة ، والمتعارف عليه في لغة العرب . فأغلقوا ابواب الفتنة في عصرهم وأضاءوا الدَّرب للمستقبل.

وقد قوَّم علماء أهل السنة رأي الجبرية بالافراط ورأي القَدَرية بالتفريط فيما يخص أفعال العباد .. فقالوا: (ان لا جَبر ولا تفويض) ، متبعين سبيلا وسطاً ، خلاصته :

إن خالق الأفعال كلها هو الله سبحانه وتعالى . لكن في الأفعال والحركات الإختيارية ، يطرح موضوع الكسب (أو الطلب) ، فالإنسان في هذه الأفعال (مكتسب) لها ، أي يميل اليها ويطلبها ، والله خالقها وموجدها . والإنسان بهذا الميل والطلب يكون مطيعاً أو عاصياً . ويتفق على هذا الرأي المتقدمون والمتأخرون من علماء أهل السنة ، لكنهم يتبعون سُبلاً مختلفة في فهم ماهية (كسب) الإنسان ، يعني الإرادة الجزئية بعبارة اخرى، فلم يقترب المتقدمون من ايضاح مفهوم(الكسب) لصيانة صفاء أذهانهم ، بينما تناول المتأخرون ماهية (الكسب) بالشرح ،

فانقسموا في شرحهم إلى رأيين رئيسين : تبلور أحدهما في الماتريدية ، وهو مذهب الإمام أبي منصور الماتريدي ، والآخر في الأشعرية ، وهو مذهب الإمام ابي الحسن الأشعري . ولا يختلف المذهبان الا في مسائل قليلة في فروع الإعتقاد.

مذهب الماتريدية ومذهب الأشعرية

(أ) مذهب الماتريدية

(١)نظرة عجلى على امام المذهب :

ولد أبو المنصور الماتريدي في بلدة (ماتريد) الواقعة بين سمرقند وبخارى. وأتم التحصيل فيها فبلغ في العلوم والمعرفة ذرى الكمال . وهو مدافع كفوء جرىء عن آراء علماء السنة - وعلى الأخص الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان - في مسائل الإعتقاد والتي استنبطوها من الكتاب والسُّنة. توفى سنة ٣٣٠هـ . أقر العلماء الأحناف قاطبة بإمامة الماتريدي في الإعتقاد.

(٢) أفعال العباد عند الماتريدي :

يعتقد الماتريدي ان الإنسان يمكنه استعمال قدرته في ترجح أحد المرجحين (فعل الشيء أو ترك فعله) . وأول من قال بذلك هو الإمام الأعظم ابو حنيفة ، اذ ذكر؛ ان الصراط المستقيم بين الجبرية والمعتزلة هو الإقرار بقدرة الإنسان على (فعل الشيء أو ترك فعله) فلا خلاص من الجبر الاّ بذلك .

ويعتقد الماتريدية؛ ان الإنسان الذي يفعل أي فعل إختياري ، هو نفسه الذي يطلب الفعل ويكسبه ، أي يصرف إرادته الجزئية الى ذلك الفعل ، ولهذا يطلق عليه اسم (فاعل) . ولكون حصول الفعلة بقدرة الله وإرادته ، فان الله هو خالق الفعل من هذه الجهة . يعنى ان الإنسان في الأفعال الإختيارية كاسب (اي طالب) والله تعالى (خالق) لتلك الأفعال. ولو لم يطلب الإنسان فعلاً اختيارياً فان الله تعالى لا يخلقه ، وهذا قانون الهي ثابت .

وكما مرَّ بنا ، فان الإرادة التي وهبها الله للإنسان إنعاماً واحساناً منه -والمسماة عند علماء الكلام: الإرادة الكلية- هي مخلوقة.

ويقر الماتريدي ان الإرادة الكلية للإنسان مخلوقة ، الا ان الإرادة الجزئية (التي هي تعلق الإرادة الكلية بفعل عمل أو ترك فعله) غير مخلوقة. الإرادة الجزئية من الامور الإعتبارية[1] وصنعة انسانية ، والامور الإعتبارية ليست مخلوقة .

---

[1] الأمور أو الحقائق الإعتبارية : هى الحقائق المعنوية التي تستند في وجودها بالاضافة الى ما له وجود في الخارج ، وهي لذلك ليست مخلوقة رغم وجودها كحقائق معنوية، كالفوق والتحت واليمين واليسار.

فان بدن الإنسان ، وما يرتبط به من اعضاء ، وروحه وما يرتبط بها من حواس ولطائف، كلها مخلوقة. الإرادة الجزئية وحدها ليست مخلوقة. وفي حالة الادعاء بأن الإرادة الجزئية مخلوقة أيضاً. عندها لن يبقى ثمَّ سبب للتكليف، وتنقلب أفعال الإنسان جميعها الى أفعال اضطرارية. كذلك يكون من غير المجدي في هذه الحالة البحث في الأفعال الاختيارية لتعلق الأفعال كلها بإرادة الله وقدرته.

وليس ثمة تعارض بين كون الإرادة الجزئية غير مخلوقة (لانها من الأمور الإعتبارية) وقاعدة التوحيد في الإسلام (ونعني؛ خلق الله الكائنات كلها سبحانه وحده) . نعم .. من غير شك أن الله خلق الأشياء كلها ، لكن الإرادة الجزئية لا تدخل ضمن مفهوم (الشيء) ! الأشياء في اللغة العربية تعني الموجودات ، ولكل (شيء) وجود في الخارج ، ولا يقال (شيء) لما لم يكن له وجود في الخارج . وفي حال اطلاقنا كلمة (الأشياء) على ما ليس له وجود في الخارج أيضاً ؛ يمكننا تقسيم (الأشياء) هـذه الى ثلاثة اصناف :

(١)كل ما له وجود في الخارج.

(٢)المعدومات : وهي ما ليس لها وجود .

(٣)كل ما هو بين الموجودات والمعدومات . وهو ما ليس له وجود في الخارج ، ولا يمكن الحُكم عليه بالعدم .

ان كل ما يقع في الفئة الثالثة يطلق عليه الأمر الأعتباري ، أو الأمر الإضافي ، أو الأمر النسبي . ولكن لا يجب ان يفهم من معنى الأمر الاعتباري: الشيء الخيالي ! بل يفيد (بانها حقائق في نفس أمرها نابعة من موجودات في نفس امرها) [1] .

ويدخل في هذه الفئة : الفوق والتحت ، واليمين واليسار ، والصغير والكبير ، والقريب والبعيد ، والكثير والقليل . فهذه الأمور لا يمكن الادعاء بعدم وجودها رغم انها لا تملك وجوداً في الخارج . مثلا : ان الله هو خالق ذراعينا : اليمنى واليسرى. ورغم ان الذراعين مخلوقتان، فان اليمين واليسار من الأمور الإعتبارية غير المخلوقة . كذلك ان الله

---

[1] المعنى : ان الأمور الإعتبارية (أو الاضافية أو النسبية) هي حقائق مجردة قائمة بذاتها، موجودة وليس لها شكل خارجي (مثل الطول أو العرض أو اللون أو الطعم) لكنها تستمد وجودها من موجودات محسوسة بذاتها لها شكل خارجي. (المترجم).

الواحد الأحد هو خالقنا وخالق آبائنا ، لكن الأبوة والبنوة من الأمور الإعتبارية غير المخلوقة .

ان الرغبة أو الطلب أو الكسب أو الميل (التي تعني الإرادة الجزئية) من جملة هذه الأمور الإعتبارية ، اذ لا وجود لها في الخارج وليست مخلوقة. اي ان الإرادة الكلية والأفعال التي يقوم بها الإنسان مخلوقة ، لكن توجهه الى فعل معين من الأفعال ، أو طلبه لذلك الفعل ، غير مخلوق، وهذا الطلب ليس فعلاً أيضاً . ويعبر في علم الكلام عن الطلب (أي الإرادة الجزئية) بكلمة (حال) .

يقول (حمدي يازر) ، عن الإرادة الجزئية: (الطلب) ليس شيئاً موجوداً بل عبارة عن نسبة بين الموجودات ، أو اضافة الى الموجودات ، و (القوة الإرادية) التي يقال لها الإرادة الكلية مخلوقة . أما القرار الذي نعبر عنه بالإرادة الجزئية أو الطلب أو الكسب بالاختيار ، فهو غير مخلوق ، اذ انه أمر نسبي ينسب الينا) [1]

---

[1] تسهيلاً وتوضيحاً يمكن القول : ان الإرادة الكلية للإنسان هي الإرادة التي يحس بها بالقوة (اي في حالتها الكامنة المستترة قبل تعلقها باي فعل من الأفعال) وهي بهذه الصفة وظيفة كامنة من وظائف الجسم واعضاؤه (كالمخ والاعصاب) وروحه . لذلك نعلم انها مخلوقة . فلو سألك سائل : هل عندك إرادة ؟ ومن أين

وأظن ان تقديم توضيحات عن المعاني المصدرية (كالكتابة والقراءة والذهاب) يلقي ضوءاً على مسألتنا هذه:

؟ لأجبت بداهة : عندي إرادة .. وهي موهوبة لي وليست من عند نفسي . فهذه هي الإرادة الكلية . اما اذا تحولت الإرادة الكلية من حال القوة (من الحالة الكامنة) الى حال التعلق بفعل معين . فان هذا التحول يحصل باختيار من الإنسان أو طلب أو ميل . فلو سألك سائل : لماذا فعلت الفعل لأجبت بداهة : للسبب الفلاني وهو ترجيحي ، فهذه هي الإرادة الجزئية . ان مجرد الطلب أو الميل أو الرغبة مسألة اعتبارية مجردة وليس فعلا له وجود خارجي . لذا فهو غير مخلوق رغم كون الفعل الناتج عنه مخلوقاً . مثلاً فعل (القتل) هي مجموعة من الحركات، كحمل خنجر والسعي الى شخص آخر ورفع الذراع وانزاله ، وهذه كلها مخلوقة ، الذراع والخنجر والاشخاص ، اما مجرد (الميل) أو (الرغبة) أو (الطلب) فهي مسألة إعتبارية غير مخلوقة. وايضاً، ان كون (فعل القتل) خيرا أو شرا مسألة تتعلق بالميل أو الإرادة الجزئية . فرغم ان نفس الفعل مخلوق في كلا الحالين ، غير انه قد يكون جهاداً أو دفاعاً عن نفس أو عرض، فيثاب عليه ، وقد يكون جريمة يعاقب عليها . أما الإرادة الجزئية (أو الميل) فهي غير مخلوقة في ذاتها لكونها من الامور الإعتبارية . وفي ذلك معنى خفي من معاني كون الخير والشر من الله تعالى ، انما يكتسبه العبد بإرادته الجزئية، فيستحق الثواب أو العقاب .

المعاني المصدرية كلها من الامور الإعتبارية التي لا وجود لها في الخارج ، وليست مخلوقة . اما المخلوق فهو الحاصل بالمصدر . (الكتابة) مصدر و(الكتاب) حاصل بالمصدر . (الكتابة) أمر إعتباري وليس لها وجود في الخارج وليست مخلوقة ، اما (الكتاب) فهو حاصل بالمصدر وله وجود خارجي . ونحن نطلق اسم (كاتب) مشتقاً من الكتابة وليس من (الكتاب) . فمن قواعد علم الصرف؛ ان اسم الفاعل مشتق من المصدر ، الذي هو أمر نسبي ، وليس مشتقاً من الحاصل بالمصدر ، الذي هو امر ثابت .

مثال آخر : عندما نشرب الماء ، الماء وايدينا وفعلنا بتحريك اليد نحو الفم ، كل ذلك مخلوق ، لكن المصدر (الشرب) غير مخلوق اذ لا يمكن ان نرى شيئاً اسمه (الشرب) . اذن طلب الشرب (اي الميل الى الشرب) في فعل شرب الماء ، و(الشرب) كمعنى ، ليس مخلوقاً لكونه من الأمور الإعتبارية.

وهكذا تكريمك لضيفك بتقديم الفاكهة اليه. فانت مخلوق، وضيفك مخلوق ، والفاكهة مخلوقة ، لكن (الكرم) أمر إعتباري غير مخلوق ، اذ لا وجود له في الخارج . ورغم ذلك لا يمكن نفيه أو انكاره . انت تحصل على عنوان (كريم) من اكرامك للضيف، اي من (الكرم) ، ولا يستدعي

ذلك ان تخلق فاكهة كما يدعي المعتزلي ، فالخالق هو الله تعالى وانت لا تقدر ان تصنع فاكهة ولكنك تقدر ان تكرم الضيف بها . ولكون ذلك أمراً اعتبارياً فلا مشاركة مع الله تعالى من جهة الخلق، ان سلطتك وصلاحيتك تنحصر في ميلك[1] الى إكرام الضيف بالفاكهة من عدمه.

فاذا قررت عدم الاكرام لا يحصل الفعل المذكور ، اما اذا قررت (الاكرام) فانك بقدرة الله وإرادته تحرك ذراعك وتعطي الفاكهة لضيفك .

وكما في الامثلة السابقة : فان (الصلاة) من المعاني المصدرية غير المخلوقة والحركات التي يؤديها المصلي حاصلة بالمصدر ومخلوقة من قبل الله تعالى ، وما يتمكنه الإنسان هو طلب الصلاة أو عدم طلبها ، وكلا الأمرين اعتباريان.

واخيراً نتطرق الى مسألة اخرى تطرقاً موجزاً:

مفهوم اجتماع القدرتين عند الماتريدية :-

[1] هذا الميل أمر اعتباري غير مخلوق (المترجم)

يرى أصحاب هذا المذهب ان للإنسان تأثيراً في أفعاله الإختيارية ، وان هذه الأفعال تظهر الى الوجود باجتماع القدرتين (اي قدرة الإنسان وقدرة الله جل جلاله) . والمقصود : ان الإنسان يمكنه القيام بأفعاله إختيارية كثيرة بالقدرة الكلية الموجودة فيه بالقوة[1] .

وعندما يتقرر فعل احداهما تتحول قدرته الكلية الى قدرة جزئية ، اي؛ تتوجه الى ذلك الفعل، اذن تأثير الإنسان في أفعاله الإختيارية عبارة عن تحويل قدرته الكلية الى قدرة جزئية ، اي توجيه قدرته الكلية الى فعل معين ، فيخلق الله تعالى ذلك الفعل بقدرته المطلقة . هذا التعلق من الإنسان بفعل معين، وخلق الله تعالى لذلك الفعل يسمى؛ (إجتماع القدرتين). أي؛ ان الإنسان في ظهور فعل اختياري الى الوجود كاسب (يقوم بالكسب أو الطلب) ، اما الله تعالى فهو الخالق.

---

[1] الموجودة فيه بالقوة : اي ان القدرة الكلية كامنة فيه غير متحركة فاذا تحركت خرجت من حال القوة) من الحالة الكامنة (اى حال الفعل، وتسمى عندئذ بالقدرة الجزئية (المترجم)

(ب) **مذهب الأشعرية** : هو مذهب المؤمنين (في الإعتقاد) من أتباع الإمام ابي الحسن الأشعري .

الإمام ابو الحسن الأشعري، رأس غالب العلماء الشافعية والمالكية والحنابلة في الإعتقاد ، سليل أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) ، أحد فقهاء الصحابة الكرام . وقد مال ابو الحسن الأشعري أولاً الى المعتزلة ثم رجع عنهم الى رأي أهل السنة ، فصنف كتباً كثيرة .

(١)نظرة عجلى الى مذهب الأشعرية:

(٢) أفعال العباد عند الأشعرية :

يبدو الخلاف بين المذهبين الصائبين الأشعرية والماتريدية بصورة عامة في مسائل فرعية في الإعتقاد ، وعلى الاخص في ماهية الإرادة الجزئية. اذ يرى الأشعرية ان الإرادة الجزئية - مثلما الإرادة الكلية - مخلوقة. فقدرة الإنسان وإرادته وما تظهر نتيجتها من الأفعال الإختيارية؛ مخلوقة كلها. فالله وحده خالق أفعال العباد ، مثل: خلقه أفعال الموجودات جميعها، لكنه (بناء على حكمة استحقاق الثواب والعقاب) وهب للإنسان في اعماله التي يفعلها إرادة صالحة للترجح وقدرة قابلة للتأثر . ولذلك ينفصل الأشعريون باقرارهم إرادة الإنسان

وقدرته عن الجبرية الذين ينفون ذلك مطلقاً ، لكنها بدلاً من اضفاء التأثير لقدرة الإنسان (كما هو عند الماتريدية) ، تقر بقابلية التأثير فقط للقدرة الإنسانية ، فيظهر اختلاف بين المذهبين في الرأي كما يأتي :

يعتقد الأشعرية في مسألة قابلية التأثير لقدرة الإنسان ، انه يمتلك رغبة من قبيل « ليت في قدرتي فعل هذا العمل !». وبناء على هذه الرغبة يخلق الله تعالى ذلك الفعل بلا أي تأثير للقدرة الإنسانية . بينما يعتقد الماتريديون بتأثير قدرة الإنسان في الأفعال الإختيارية وبظهور الفعل الى الوجود باجتماع القدرتين، أي القدرة الإنسانية وقدرة الله المطلقة .

ينجر هذا الاختلاف في القدرة بين المذهبين الى تعريف الإرادة الجزئية.

اذ يعرفها الاشاعرة (بالميل والاشتياق الى احد الأمرين : «تحقيق فعل معين أو ترك فعله») .

ويعرفها الماتريديون : (بتعلق الإرادة الكلية بأحد الأمرين : «تحقيق فعل أو ترك فعله») .

فالذي عند الأشعرية (ميل واشتياق) ، هو عند الماتريدية (تعلق) .

ومما يجدر ذكره ان اثنين من أكبر ائمة الاشاعرة وهما : القاضي ابو بكر الباقلاني وابو اسحق الاسفرايني يبتعدان عن مذهب ابي الحسن

الأشعري ويسندان رأي الماتريدية بالموافقة على رأيهم في وقوع الأفعال الإختيارية للإنسان باجتماع القدرتين. والجهة التي يبدو فيها اختلافهما مع الماتريدية هي انه: يرى ابو بكر الباقلاني (تعلق قدرة الإنسان بوصف الفعل وتعلق القدرة الالهية باصل الفعل)[1].

مثلا : ان الله خلق اصل فعل الكتابة ، ويجوز ان يكون ما يكتب لصالح الدين أو ضده فيكون مفيداً أو مضراً . ان قدرة الإنسان تتعلق بصفة الفائدة أو الضرر في فعل الكتابة ، اي ان الإنسان هو الذي يقرر أحد الوصفين ويقوم بفعل الكتابة بموجب قراره . ويرى ابو اسحق الاسفرايني: ان قدرة الإنسان وقدرة الله تعالى تتعلقان باصل الفعل لعدم امكانية تأثير القدرة الإنسانية في اظهار الفعل الى الوجود ؛ فيظهر بقدرة الله تعالى . ولكون أساس الرأيين هو «تعلق قدرة الإنسان فانهما يفترقان عن رأي الاشاعرة المرتكز على كون قدرة الإنسان وإرادته الجزئية مخلوقة .

[1] مصطفى صبري، موقف البشر تحت سلطان القَدَر .

مسائل متفرقة

التوكل :

يفهم أُناس التوكل – في الإسلام – بنظرهم السطحي كأنه التسليم للقدر لغرض العيش الكسول، وتهدف المصادر الغربية خاصة الى إشاعة هذا الفهم عن التوكل. الشرح الذي قدمناه للقدر والإرادة الجزئية يعتبر (نوعاً ما) رداً على هذا الفهم الخاطىء . ومن المفيد ـ مع ذلك ـ ان نفرد خاصاً بالتوكل.

معنى التوكل؛ هو جعل الله وكيلاً ، واساسه انتظار نتيجة ما يصبو اليه المؤمنون من غايات ، بعد إعداد الأسباب المطلوبة من الله تعالى ، مع اليقين أنه هو المؤثر الحقيقي . مثلاً : التوكل في الحروب هو انتظار الظفر من الله تعالى والاعتماد عليه ، بعد التسلح بأقوى الاسلحة ضد العدو ، وتطبيق قواعد علم الحرب بدقة . فالتوكل – بالمعنى هذا ـ هو تطبيق القوانين المسماة؛ بالسنن الالهية في المقاصد الدنيوية والاخروية كما ينبغي، ثم انتظار النتيجة من الله تعالى . وتعبر السطور الآتية عن التوكل تعبيراً واضحاً ولطيفاً :-

«التوكل ليس رفض الأسباب رفضاً مطلقاً بل لعله عبارة عن طلب المسبَّبات (يفتح الباء) من الله تعالى وحده ، واليقين بحصول النتائج منه ، والاقرار بفضله بمراعاة الأسباب (لكونها ستاراً ليد القدرة) ، وبتلقي التعلق بالأسباب كنوع من الدعاء بالأفعال[1] .

لنقف وقفة قصيرة - في ضوء هذا التعريف - عند تعبير (الأسباب) و (المسبَّبات) .

الأسباب؛ هي الوسائط والشروط . لقد ربط الله سبحانه غايات الدنيا والآخرة بأسباب وشروط ، وهذه سُنة الهية ثابتة. والنتائج المتولدة من الأسباب هي (المسبَّبات). مثلاً: العبادات (أسباب) ، والسعادة الأبدية (مسبَّبة) . والشجرة (سبب) ، والفاكهة (مسبَّبة) ، أو إذا كانت الشمس والارض والماء (أسباباً) فالشجرة تكون (مسبَّبة) . وخالق الأسباب والمسبَّبات هو الله تعالى . ونقول ان الله هو مسبِّب (بكسر الباء) الأسباب لربطه كل مسبَّب (بفتح الباء) بسبب. والأسباب رغم عدم تأثيرها في النتائج[2] - قانون الهي .. من لا يراعيه يُحرم من نتائجه .

---

[1] سعيد النورسي ، سوزلر ، ص٢٩٢ .

[2] من جهة الخلق والايجاد (المترجم).

فالتوكل هو مراعاة الأسباب ثم انتظار النتائج من الله والاعتماد عليه والرضا والشكر على ما يأتينا منه في حال موافقته لرغباتنا أو عدم موافقته لها . أما ترك الأسباب والشروط الواجبة ، فهو لا يتلاءم مع المفهوم الإسلامي للتوكل . وقد قال سبحانه وتعالى : {فاذا عَزمتَ فَتوَكل على الله }(آل عمران : ١٥٩) فلم يأمرنا بالتوكل قاعدين كسالى ، اذ على الإنسان ان يعزم على العمل ويعتمد على الله . والذي لا يثق بالله يعتمد على نفسه أو على الأسباب ، وبما أن نفسه والأسباب عاجزة جداً، فلن يجد الراحة والاطمئنان الا بالاعتماد على الله خالق الأسباب كلها ، ورابط الأسباب بالنتائج .

ان الله خلق الإنسان بكنهه ومادته زبدة للعالم ، وجعله بمثابة الثمرة لشجرة الكائنات ، لذلك فهو على علاقة مع الكائنات من كل الوجوه، وجهاً لوجه ، ويداً بيد ، مثلما عيونه على علاقة بالشمس ودمه بالهواء . وبسبب ذلك ، لو أراد ان يقوم باي عمل كان ، فانه (يتعلق) في نفسه بالعمل ثم يتخذ الأسباب الموجودة في هذا العالم ، والتي تساعده على انجازه .

ان اجتماع التعلق النفسي والأسباب الخارجية هو دعاء بالأفعال لطلب النتيجة من الله تعالى ، لانه وحده خالق النتيجة. ومن هذه النقطة يبدأ التوكل.

لنوضح الأمر بمثال:

عندما يريد الإنسان الحصول على الحنطة يكدح في الارض بزرعه يحرثها . ويبذر فيها ويسقيها . بعد التعلق النفسي واتخاذ الأسباب ، يتوكل على الله في انتظار النتيجة براحة بال واطمئنان . وكما هو مفهوم من هذا المثال ، لا «التعلق» الإنساني وحده ، ولا وجود « الأسباب» ، كالارض والماء والبذور – من غير التعلق الإنسانى- كافيان للحصول على النتيجة . هذه سُنة الهية ... فطريق طلب الحنطة من الله هو تعلق الشخص بالعمل واتخاذ الأسباب .

ولنسأل المعترضين على التوكل بمفهومه الإسلامي: أيهما افضل للشخص الذي في مثالنا – بعد ان فعل ما في مقدوره وأتخذ الأسباب وراعى الشروط الواجبة – ان يترك التوكل فيذهب الى بيته مترقباً الشتاء بطوله فاقداً راحة البال ؟ ام ان ينتظر النتيجة بصبر ورضاء ولسان حاله يقول : (ما يأتيني من ربي الرحيم – الذي يعرفني أكثر مما اعرف نفسي ويعطف عليَّ أكثر من عطفي على نفسى – كله خير ، فالخير فيما يقدره

الخالق الكريم الذي رباني في بطن أمي - ذلك المنزل المظلم - برحمته ، وامدني بمحضن أمي وعش أبي بعد ولادتي ، وسخر لي الجبال بمعادنها، والزرع بثماره، والبحر بأسماكه. ان فكري - مثل قوتي وقدرتي - محدود، فانا لا أعرف في هذه الدنيا ما هو خير لي في آخرتي ، كما لم اكن اعلم الاعضاء اصلح لي وأنا في بطن أمي . اذن فاني متوكل على الله معتمد عليه) .

وايهما أفضل للمريض بعد تناوله الادوية حسب ارشاد الطبيب : أن يتوكل على الله تعالى طالباً الشفاء بصبر ؟ ام ان يترك التوكل منتظراً النتيجة بقلق بالغ ، واقعاً فريسة للاضطراب النفسي ؟

ولقد اهدى الينا القرآن الكريم سعادة في الدنيا والآخرة ـ مثلما في أوامره ونواهيه جميعها - بالحض على التوكل . فمن صفات المؤمن ان ينتظر من الله تعالى بعد بذل ما في قدرته من جهد ، ووضع كل الشروط في محلها ، فان جاءت النتيجة كما يرغب حمد الله وشكره ، وان جاءت على غير مراده ردد مع نفسه : (ربي .. انت ارحم بي من نفسي ، ورحمتي - مثل إرادتي - محدودة أيضاً ، اذن اتوكل على الله ذي الرحمة غير المتناهية ، وما يأتينا منه خير كله ، حتى البلاء منه دواء) ، فيحافظ على اطمئنانه وينال اجراً كبيراً لآخرته . وقد عبر أحد العظماء عن ذلك

بقوله: (يارب .. ان احسنت اليَّ فوهبتني ما أرغب فيه وأريد أحمدك واشكرك . وأن اجريت الامور على عكس ما أتمنى ارضى بإرادتك واستقبله بسرور اعظم من سروري بألف مرة ، لو كنت حصلت على ما أتمنى) .

لاحظ أن التوكل ليس مصدر ضعف أو كسل للمسلمين ، بل هو مصدر قوة . فالتوكل يكسب الفرد دائماً الصلابة والشجاعة ، ويمنحه الثقة والجرأة في العمل والجهاد ، وهو خير علاج للقاق والمرض.

والتوكل خير مصدر للتسليم والسلوان في الآفات العامة والامراض والمصائب . أي شي يوفر للمريض على فراش الموت ما يوفره التوكل من الأمان والسرور ؟ فمن أجل فوائده وحكمه - التي ذكرنا القليل منها - يحض الله تعالى المسلمين في كثير من الآيات الكريمة على التوكل.

وفي ختام موضوع التوكل ننقل واقعتين تأريخيتين تتعلقان بسيدنا عمر (رضي الله عنه) الذي كان أحد سلاطين المعرفة والمستحق لثناء القرآن المجيد عليه: الأولى في الأمور الدنيوية، والثانية في الأعمال الأخروية .

عن إبن عباس (رضي الله عنهما) أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عنْه) خَرَجَ إلى الشَّأْمِ، حتَّى إذَا كانَ بسَرْغَ (موقع قرب تبوك) لَقِيَهُ أُمَرَاءُ

الأَجْنَادِ؛ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ وأَصْحَابُهُ، فأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ [1] قدْ وقَعَ بأَرْضِ الشَّأْمِ. قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وأَخبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قدْ وقَعَ بالشَّأْمِ، فَاخْتَلَفُوا[2] ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قدْ خَرَجْتَ لأمْرٍ، ولَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عنْه، وقَالَ بَعْضُهُمْ: معكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وأَصْحَابُ رَسولِ اللَّهِ (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)، ولَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ علَى هذا الوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لي الأنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ المُهَاجِرِينَ، واخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لي مَن كانَ هَاهُنَا مِن مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِن مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ منهمْ عليه رَجُلَانِ، فَقالوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بالنَّاسِ ولَا تُقْدِمَهُمْ علَى هذا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ في النَّاسِ: إنِّي مُصَبِّحٌ علَى ظَهْرٍ فأصْبِحُوا عليه[3] قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِن قَدَرِ اللَّهِ؟! فَقَالَ عُمَرُ: لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ؟!، وكان عمر يكره خلافه[4] ، نَعَمْ.. نَفِرُّ مِن قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ،

---

[1] الطاعون.

[2] أي اختلفوا في السير الى الشام أو الرجوع.

[3] أي أني مصبح راكباً للعودة فاستعدوا.

[4] أي الاختلاف معه.

أَرَأَيْتَ لو كانَ لكَ إبِلٌ هَبَطَتْ وادِيًا له عُدْوَتَانِ[١] ، إحْدَاهُما خَصِبَةٌ، والأُخْرَى جَدْبَةٌ، أليسَ إنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بقَدَرِ اللَّهِ، وإنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بقَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَجَاءَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ -وكانَ مُتَغَيِّبًا في بَعْضِ حَاجَتِهِ- فَقَالَ: إنَّ عِندِي في هذا عِلْمًا؛ سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) يقولُ: إذَا سَمِعْتُمْ به[٢] بأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذَا وقَعَ بأَرْضٍ وأَنْتُمْ بهَا فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه. قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ [٣]. -اي حمد عمر (رضي الله عنه) الله تعالى لموافقة رأيه مع قول النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم انصرف عائداً -

هذا الحادث تعبير لطيف وشاهد تأريخي لمفهوم عمر (رضي الله عنه) للتوكل والقدر. فعند شرحنا للتوكل تطرقنا الى وجود أسباب وشروط فرضها الله تعالى للحصول على السعادة الأخروية. فالتوكل على الله

---

[١] جانبان.

[٢] أي بالوباء أو الطاعون.

[٣] حديث متفق عليه . انظر: رياض الصالحين للامام النووي، باب كراهة الخروج من بلد وقع فيها الوباء فرارا منه وكراهة القدوم عليه ، وايضاً البخاري٧/ ٢١ ، والموطا لمالك٤/ ٧٧ .

للحصول على السعادة الأبدية من غير مراعاة هذه الأسباب والشروط، مخالف للسنن الالهية. والإسلام يرفض مثل هذا التوكل .

ومن الملاحظ ان بعض الناس - بفهمهم الخاطىء لمعنى التوكل في الأعمال الأخروية - يجدون السلوان في انفسهم بقولهم : « ان الله غفور رحيم» ، من غير ابداء أية حساسية في مراعاة الطاعة والابتعاد عن العصيان .

الحادثة التاريخية الثانية التي سنرويها جواب مفحم لهذا الفهم الخاطىء.

كان عمر (رضي الله عنه) دائم الاستغفار ، كثير البكاء ، حتى ان الدموع تركت اثراً ظاهراً في خديه ، خائفاً من مصيره حتى اشفق عليه أصحابه ، فقيل له :

-هوّن عليك .. ألست من العشرة المبشرة بالجنة الذين بايعوا النبي (صلى الله عليه وسلم) تحت الشجرة ؟

اجاب عمر : بلى .. قد وعد الله وعداً وشرط شرطاً .. ارأيتم ان تركت طاعته ، أيدخلني الجنة ؟

ان عمر رغم تبشيره بالجنة لم يتأخر عن اتخاذ اسباب السعادة الابدية ولم يغفل عن آخرته . واظهر حساسية عظمى في عبادته ودعواته. وهذه

الحالة دعاء لكسب رضا الله والسعادة الأبدية ، وواهب النتيجة هو الحق تبارك وتعالى. وفي هذه الرواية مثال حي للتوكل الذي أمر به الإسلام في الأعمال الأخروية.

مسألة ختم القلوب :

يقول الله ربنا الجليل في خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) : {ان الذينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيهِمْ أَأَنذَرْتَهم أَمْ لَمْ تنذرهم ، لا يُؤْمِنُونَ * ختم الله على قلوبِهم وعلى سَمعهم ، وعلى ابصارِهم غِشاوة ، ولَهُمْ عَذَابٌ عَظيم} (سورة البقرة:٦-٧)

وهناك من يتعامل مع هذه الآية بمنطق سطحي مدعياً : « لقد ختم الله على قلوب هؤلاء ، فكيف يمكن ان يؤمنوا ويعبدوا ؟ ويروا الحقائق ويسمعوا ؟» والحال ان لا مكان لمثل هذا الادعاء عند المؤمن الناظر الى الآية بعين التفكير والانصاف والوجدان . اذ قبل كل شيء يفهم من الآية بعين التفكير والانصاف والوجدان أن فعل «الكفر» يعود الى البشر، وفعل «الختم» على القلوب والسمع وتغشية الأبصار يعود الى الله تعالى . وكما نعلم ان إرادة الله ترتبط بإرادة الإنسان الجزئية في الأفعال

الإختيارية. ففي هذه الآية ينحرف الإنسان الى الكفر، فيختم الله على قلبه وسمعه ويغشي بصره.

ان فخر الكائنات النبي (صلى الله عليه وسلم) يعلمنا ان لا عائق امام ايمان الإنسان أو وصوله الى الهداية بالحديث الشريف : «وما من مولود الا يولد على الفطرة »- متفق عليه - . وكذلك يقول الله سبحانه: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا} (الكهف:٥٦). ومن المعلوم ان اللطف والاحسان غير المتناهي الذي يعرضه الله سبحانه وتعالى في الإنسان نفسه ، وفي الكائنات ، لا يُرى الا بنور الإيمان ، وتشكل المعاصي والآثام (وعلى رأسها الكفر) غشاوة تحجب هذه الرؤية ، فكلما تمادى الإنسان في العصيان . تكاثفت الغشاوة أمام عينيه حتى تورثه العمى . والذي لا يقلب خجله (بالتوبة) الى سرور وأمان ، يعشعش في قلبه الكبّر والرياء والشهوة وأخيراً الكفر ، بسيطرة النفس الأمارة بالسوء عليه بدلاً من نور الإيمان . هذه الحال تولد عمى البصيرة وفي النتيجة ختم القلب. يقول الله سبحانه وتعالى (وَمَا كانَ ربُّك ليهلكَ القرى بِظلم وأهلها مصلحون) (هود:١١٨).

و بالقياس نفسه ، فان ربنا الرحمن الرحيم لا يختم على قلب إنسان وهو في حالة الإيمان والعمل الصالح . ان الذين يسلكون درب الكفر عمياً عن شهادات لا حصر لها في الكائنات تدل على وجود الله ووحدته ورحمته وكرمه ، وصماً عن اصدائها التي لا عدَّ لها ، يسببون لأنفسهم ختم قلوبهم وسمعهم ، وتغشية ابصارهم .

●الرزق والأجل :

ان القَدَر والقضاء الالهي الذي يسري على أفعالنا الإختيارية والاضطرارية كلها ، يسري على الرزق والاجل أيضاً. ومثل كل شيء ، ليس الرزق ولا الأجل خارج نطاق التقدير الالهي . لنعرض كلا منهما على حدة :-

(١)الرزق :

(أ) الرزق وتقسيمه:

أحد الأسماء الحسنى لله تعاله هو (الرزاق). وتتجلى صفة (الرزاق) مثل صفاته الأخرى بتقديره . وكما خلق كائنات منوعة من الذرة الى المجرات، ومن الزهور الى النجوم ، ومن الميكروبات الى الأُسود ،

ليتجلى اسم (الخالق) ، فانه خلق ارزاقا منوعة ليتجلى اسم (الرزاق) . لقد قدر ارزاقاً شتى للميكروبات والنمل والنحل والغزلان والوحوش والبشر .. ان سعي احياء لا حصر لها ، من الطيور والحشرات والاسماك والحيوانات كافة ، كل يوم ، وحصولها على ازاقها التي تديم حياتها ؛ يدل على ان تقسيم الارزاق ليس عملاً عشوائياً يقوم بالصدفة ، بل بتقدير الله الرزاق ذي الجمال.

وتقسيم الارزاق يتغير بتغير العصور أيضاً . اذ ان الناس والاحياء في كل عصر رزقوا بالنعم المقدرة لهم ثم رحلوا من الدنيا .. وتغيرت العصور فتغيرت الارزاق والمرزوقون ، لكن الله تجلى ويتجلى دوماً باسمه (الرزاق) ، خالقاً الارزاق.. والمحتاجين الى الارزاق.

إن أي حي كان مستفيد من الارزاق الموزعة باللطف والإحسان في هذا الكون ، هو في حد ذاته كون مصغر ، اذ يوجد في داخله اعضاء منوعة ، وفي كل عضو خلايا منوعة ، تنتظر كلها الرزق وكما تختلف في العالم أرزاق الأُسود عن أرزاق الأسماك ، كذلك تختلف أرزاق خلايا العين عن أرزاق خلايا الرئتين . وما أعظم صفة (الرزاق) المشهودة في تقسيم غذائنا من المعدة الى كل عضو وخلية بالشكل الذي يلائمه ويليق

به. ولو فكرنا بسريان هذه العملية في كل لحظة ، وعند كل ذي حياة ، لظهر لنا بعض الشيء من عظمة تجلي اسم (الرزاق).

إذن تقسيم الارزاق في كل عصر ، بين أنواع الاحياء في ذلك العصر ، واعضاء الجسم لكل حيّ ، وخلايا كل عضو من الاعضاء ، انما هو بتقدير الله الجليل . هذا التقدير قسم الارزاق بين البشر أيضاً بحكمة . فقد قدر ما يحصل عليه كل انسان من الرزق طول حياته ، وهذا هو معنى القول الشائع : « ما من أحد يأكل رزق غيره»، اذ يجب ألا يفهم المعنى بالشكل المعكوس ! «ما دام الرزق مقدراً ومقسوماً فلا معنى للعمل ! ». هذا النمط من الفهم يخالف قاعدة التوكل بمفهومه الإسلامي. اننا ملزمون بالجد في أسباب الرزق لجهلنا بما قدر لنا من الرزق مثل الأحياء الأخرى ، مع فارق كون سعينا في طلب الرزق حاصلا بإرادتنا ، اما الاحياء الأخرى (كالطيور والنمل) فانها تقوم بالسعي بنوع من الإلهام .

نحن في موقف يوجب علينا القول (مع شرط البقاء في دائرة الحلال ، وبذل أقصى الجهد): هذا من فضل ربي وتقديره .

(ب) الرزق الحلال والرزق الحرام :

تُرك الإنسان حُراً في الحصول على الرزق الحلال أو الحرام لكون الدنيا ساحة امتحان ، واختيار احدهما يعود اليه، غير ان الله أمره بكسب الرزق الحلال ، ومنعه عن كسب الرزق الحرام . وقد عبر علماء الكلام عن ذلك بقولهم : « يرضى الله عن الحلال ولا يرضى عن الحرام ». وقد يفهم بعضهم هذا فهماً خاطئاً ، فيستنبط : « ان الله لعدم رضائه بكسبنا الرزق الحرام ، لا يرضي بخلق ذلك الرزق ! ». وبالنتيجة يجدون القاعدة المذكورة غلطاً ! لأن ظهور أي شيء كان الى الوجود من غير رضاء الله محال. وغاب عنهم: « ان كسب الشر شر .. وخلق الشر ليس شراً». مثلاً : خلق جهنم ليس شراً ، بل هو خير . ولكن القيام للأعمال المؤدية اليها شر ، والله لا يرضى عن قيامنا بتلك الأعمال ، وهذا ظاهر من منعنا عنها ووعيده لمرتكبيها . لكن في حال ارتكاب الإنسان لهذه الأعمال رغم الوعيد ، فان الله يقدر خلق تلك الأفعال بإرادته.

(٢) الأجل :

(أ) معنى الأجل :

الأجل يعني الوقت أو المدة ، وكذلك انتهاء المدة أو الأمد . وقد قدّر الله عمراً معيناً للإنسان ونهاية لعمره كما جاء في كتابه الكريم: {وهُوَ

الذي خَلَقَكُم مِن طين ثم قضى أجلاً ، واجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون} (الانعام: ٢).

ويعنى تقدير الأجل تعيين مدة لعمر الإنسان. فالأجل من هذه الجهة ثابت لا يتبدل، أما الأمراض والتأثيرات الخارجية فما هي إلا أسباب ظاهرية للموت .

(ب) أجل القضاء والأجل المسمى:

الأجل عند علماء الكلام أجلان : أجل القضاء والأجل المسمى. ومعنى أجل القضاء؛ المدة التي يعيشها الإنسان في الدنيا، أما الأجل المسمى؛ فهو الأمد بين موت الإنسان الى القيامة والحشر وانتهاء الحساب يوم الحساب.

الموت؛ هو مفارقة الروح للجسد. والروح تستمر في حياتها مثلما كانت ذات حياة قبل دخولها جسد الإنسان . فيقال للمدة التي تقضيها روح لإنسان (المخلوقة في عالم الارواح والتي تستمر في حياتها الى الأبد في الآخرة) داخل الجسد في هذه الدنيا : « أجل القضاء». وللمدة التي تبدأ بالموت وحتى تمام الحساب في الحشر : « الأجل المسمّى».

اذن أجل القضاء؛ (باعتبار معنى الأجل انتهاء المدة) هو بلوغ الحياة الدنيا الى نهايتها ، والأجل المسمى؛ هو بلوغ عالم القبر الى نهايته . بعبارة اخرى : أجل القضاء؛ هو بداية عالم القبر. والأجل المسمى؛ هو بداية الآخرة .

(ج) اطالة الصدقة للأعمار :

أدعى أناس إمكان اطالة العمر وتغير الأجل مستندين الى الحديث الشريف المتضمن ؛ ان الصدقة تدفع البلاء وتطيل الاعمار. ولنوضح قبل اي شيء ان الموضوع بالنتيجة يتركز في موت الإنسان ـ بغض النظر عن كنه اطالة الصدقة للعمر - وان هذه الحادثة معلومة في علم الله الازلي. لذا فان ساعة الموت ، وبالتالي مدة العمر ، قدرت من الله ومحال تغييرها . لنفرض مثلا؛ ان صدقةً مَدَّت في أجل إنسان سنتين ، ولكن الأجل المشروط (ونسميه الأجل المعلق) لهذا الشخص خمسين سنة ان ادى الصدقة ، وثمانية واربعين عاماً ان لم يؤدها . وبما أن الله يعلم انه سيؤدي الصدقة ، فانه يكون قد قدّر بخمسين سنة ، وهذا الأجل لا يتغير.

ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديثه المذكور آنفاً . يحبب الينا الخيرات ، ويشد أواصر الحب بين المؤمنين بالصدقة . ودفع الصدقة لبلاء لطفٌ وعطاءٌ من الله ، ونحن نجهل أنواع البلايا التي دفعتها الصدقات ، لكننا بادائنا الصدقات وقيامنا بالخيرات ندفع عن انفسنا نكبات كثيرة . ان دفعنا للبلايا التي نجهلها لعدم ظهورها الى الوجود نعمة اخرى تسمى «النعمة السلبية» زيادة على هذه الجهة المجهولة لدينا، نحن تعلم ان الصدقة تسحق الخطايا والآثام لكونها خيراً نثاب عليه.

لقد شرح التفتازاني ، أحد كبار علماء الكلام ، مسألة اطالة الصدقات للاعمار في كتابه (شرح العقائد) ، نذكر منه شيئاً ملخصاً ميسراً هنا :

المقصود من اطالة العمر وقوع البركة فيه . ان معنى اطالة العمر ، الذي وهبه الله للإنسان رأسمالا لعمل الخيرات والحسنات ، هو الحصول على ربح أكثر من رأسمال العمر. على هذا الأساس فان زيادة ثمرات العمر بالصدقات يعني اطالته وان لم يجر تغيير مدته .

ولنضرب مثلاً على ذلك : لنقل ان شجرة تنتج (٤٠٠٠) ثمرة كل ربيع وأن عمرها عشر سنوات. لو انتجت هذ الشجرة في احدى السنوات(٨٠٠٠) ثمرة بدلا من (٤٠٠٠) بفضل الله ، فان عمرها

يكون قد طال حكماً (أي معنىً) سنة واحدة. فهكذا الصدقة أيضاً وسيلة تزيد في ثمرات عمر الإنسان. ويعبر التفتازاني عن ذلك بقوله :

ان الصدقة تزيد في المقصود الأهم من العمر ألا وهي الأعمال الصالحة وبلوغ الكمال، لأن الشر يصلون الكمال وسعادة الدارين بالأعمال الصالحة .

ثمة تفسير آخر لاطالة العمر بالصدقة : البركة في الرزق وقضاء العمر في أمان وسرور . وهناك تفسير يقول : ان اطالة العمر هو دوام الحسنات والخيرات بعد الموت. ونعلم ان الصدقة تكون بالعلم والعرفان كما تكون بالاموال . فالعالم الذي ينشر كتاباً مفيداً لا ينقطع عمله ، وهذا اطالة في عمره ، لان من كانت حسناته تزيد ما دام حياً ، يبقى حياً – معنوياً – اذا استمرت حسناته بعد موته[1] .

● حكمة المصائب من زاوية القَدَر :

[1] قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) رواه مسلم.

تخفي البلايا والمصائب المنوعة التي يتعرض لها الإنسان حِكماً كثيرة في طياتها كما يقول الله سبحانه وتعالى : { وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيئاً وهو خير لكم ، وعَسَى أَنْ تُحِبوا شيئاً وَهُو شر لكم والله يعلم وانتم لا تَعْلَمُونَ} (البقرة: ٢١٦).

ينظر القَدَر في تقدير البلايا والمصائب الى العلل والأسباب الحقيقية ويحكم بموجبها ، وتتستر خلف العلل والأسباب الحقيقية: الرحمة والعدل والعناية.

ونشير هنا بايجاز الى خمس من تلك العلل الحقيقة :

(١) قسم من المصائب هي نتائج لأخطاء العباد السابقة ومتولدة كلياً من اهمالهم واخطائهم ونواقصهم ، مثل اصابة الشخص بالمرض نتيجة اهماله سبل الوقاية اللازمة.

(٢)قسم من المصائب تدفع بلايا كانت ستقع ، أو يهون من شدتها ، وفي الحقيقة تكون مثل هذه المصائب إحساناً من الله لوقوعها سداً امام المصائب الكبيرة .

(٣) المصائب تنقذ الحياة من الرتابة وتصبح وسيلة لمعرفة قيمة النعم وتساعد في ارتقاء وتكامل الإنسان معنوياً ، يعني انها تعطي درساً فعلياً في قيمة النعم وأهمية الصحة .

(٤) من أوجه الامتحان في هذه الدنيا قياس (قوة رضاء الإنسان) بالقَدَر عند مجابهته المصائب . وكما نعلم أن الصبر في المصائب عبادة من (العبادات السلبية) ، فيعلمنا الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ان الله إذا أراد بعبده خيراً ؛ ابتلاه بالمصائب والمشقات ، ونفهم من هذا ان وراء كل مصيبة ثمرات العناية الالهية الشديدة اللذة[١].

لذا علينا ان نواجه المصائب بالصبر والشكر والالتجاء الى بحر الرحمة الالهية ، مظهرين عجزنا وضعفنا . ان مواجهة المصائب بالرضا وسيلة مهمة لنيل رضا الله الجليل ، والعبد اذا فاز برضائه هان عليه ما كابده من مشتقات وما أصابه ان مصائب .

يروي ابن عباس (رضي الله عنهما) عن سيدنا فخر الكائنات (صلى الله عليه وسلم) في حديث قدسي : (مَن لم يرضَ بقضائي ولم يصبر على بلائي فليلتمس رباً سواي)[٢] .

---

[١] عن ابي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (من يرد الله به خيراً يصب منه) رواه البخاري.

[٢] رواه ابن حبان والطبراني وابو داود وابن عساكر عن ابي هند الداري .(راجع: الإتحافات السنية بالاحاديث القدسية).

(٥) المصائب تكون كفارة لآثام المؤمن المذنب ، ويرقيه الى مقام عباد الله المخلصين. روت عائشة (رضي الله عنها) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَن وَلاَ أَذًى وَلاَ غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إِلاَّ كفَّر اللهُّ بهَا مِنْ خطَايَاه) (متفق عليه) .

ويمكن التصور جزئياً مبلغ العناية في المصائب والأمراض من جهة حطّها من الذنوب قياساً بالشوكة التي تكفر في شيء من الخطايا .

وقد كتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى معاذ (رضي الله عنه) حين مات ولده :

(من محمد رسول الله الى معاذ بن جبل .

السلام عليك . فأني احمد الله الذي لا اله الا هو . اما بعد ، فعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا واياك الشكر ، ثم ان نفوسا واموالنا واهالينا وأولادنا واموالهم من مواهب الله الهيئة وعواريه المستودعة ، تمتع بها الى احل معدود ويقبضها لوقت معلوم . ثم افترض الله علينا الشكر اذا اعطى ، والصبر اذا ابتلى . وكان انك هذا من مواهب الله الهيئة ، وعواريه المستودعة ، متعك الله به . غطة وسرور ، وقضه بجرة كبير ان صبرت واحتسبت . فلا تجمعن عليك يا معاذ ان يحبط جزعك اجرك

فتقدم على ما فاتك . فلو قدمت على نواب مصيبتك عرفت ان المصية قد قصرت عنه . واعلم ان الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزناً فليذهب عنك اسفك بما هو نازل بك)[1].

ولنذكر هنا انه كلما كانت نتيجة الشيء سامية وقيمة ، زادت مشقة الوصول اليها ، لذا فان الطريق الى نيل إحسان الله ولطفه والنجاة من النار والفوز بالجنة شاق. وبسبب هذه الأسرار المكنونة تصيب اعظم المصائب والبلايا وأشدها الأنبياء أولاً ثم الأمثل فالأمثل على قدر ايمانهم وصبرهم .

وختاماً ننقل قصة وردت في القرآن الكريم تلهمنا درساً في كون القَدَر ينظر بعين الأسباب الحقيقية: تلك هي قصة النبي موسى (عليه السلام) مع الخضر (عليه السلام) المليئة بالحكمة والعبرة :

فقد دعا موسى (عليه السلام) طالباً من الله تبارك وتعالى ان يرافق الخضر (عليه السلام) بنية الاستفادة من علمه فاستجاب الله تعالى له ، ولقي الخضر فطلب منه موسى مرافقته { قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا * حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ

---

[1] تنبيه الغافلين ، باب الصبر على المصيبة.

خَرَقَهَا }. اعترض موسى قائلا : { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا }. ذكره الخضر شرطه (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟) قال له موسى : { إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا } ورغم ذلك عندما وجد الخضر فيها جداراً على وشك السقوط اقامه وقوى بناءه. تعجب موسى وسأل الخضر: { لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا !} قال له الخضر: { قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا }[1].

علينا ان ننظر الى الحوادث الخارجة عن إرادتنا والمصائب والبلايا التي تصيبنا بمنظار الحكمة الكامنة في هذه القصة . اذ يجب ان نتصور بنور الإيمان يد الخضر المليئة بالعناية والرحمة في كل حادثة ، ففي خرقه السفينة انقاذ لها، وفي قتله الغلام انبثاق للحياة . فكم من سفينة انقذت؟ وكم من حياة انبثقت حتماً بتجلي رحمة الله وراء كل مصيبة وبسر حكمته؟ اننا يجب ان نوقن بذلك ونخضع . وأن الشخص الذي يصل الى سر هذه القصة هو الذي يعتبر المصيبة التي تصيبه عناية والمرض علاجاً ، والعدم باباً الى الوجود مثل انشقاق البذرة التي تؤدي الى ظهور الشجرة . هذه الحالة تكون وسيلة للمؤمن لنيل رضا الله سبحانه وتعالى وتكون أيضاً مصدراً للأمن والسرور في هذه الدنيا.

● مسؤولية القاتل في جريمة القتل :

---

[1] اقرأ سورة الكهف من الآية ٦١ الى الآية ٨٣.

هذا جواب عن السؤال الذى يقول : (ما دام مقدراً موت فلان من الناس في الوقت الفلاني ، فما ذنب من يطلق النار عليه باختياره الجزئي ، فانه ميت حتى لو لم تُطلق النار عليه ؟

لقد ربط الله تعالى بحكمته كل مسبِّب (بفتح الباء المشدودة) بسبب في هذا العالم (اي كل معلول بعلة) . ويمكن تعريف القَدَر بهذا المفهوم باعتباره (العلاقة بين السبب والمسبَّب). مثلاً: الطفل «مسبَّب» والأبوان « سبب » ، اذ قدر الله خلق الطفل من هذا الاب وتلك الام .

توهم الجبريون في جعلهم قدرَين منفصلَين لكل من السبب والمسبب، يعني انهم ينظرون نظرة منفصلة الى الأبوين وكذلك الى الطفل: ويترتب نتيجة لذلك قولهم: « ما دام قدر الطفل الظهور الى الوجود فإنه كان سيظهر حتى من غير ابوين»، فوقعوا في الخطأ .

أما المعتزلة فانهم يمنحون التأثير للاسباب ، فيقعون في فهم باطل بقولهم: « لولا الأبوان لما ظهر الطفل الى الوجود».

اما علماء أهل السُّنة فيقولون : « ان القَدَر يتعلق بالسبب والمسبَّب سوية (كواقعة متلازمة) ». وعلى فرض انعدام السبب فلن يمكن افتراض اي توقع عن المسبَّب .

ولو سئلوا : هل كان الطفل سيولد لو لم يكن الأبوان في المثال السابق؟ ، لأجابوا : لا نعلم ما الذي كان سيحصل . اذ ثمة واقعة هي ولادة الطفل من أبوين معينين... فكيف يمكن الحُكم على ظهور الطفل الى الوجود أو عدم ظهوره مع فرض عدم وجود الأبوين ؟ وأيضاً لا يمكن طرح الظنون والتوقعات عن ظهوره الى الوجود من ابوين آخرين.

مثل آخر : لفرض التقاء شخصين في انقرة احدهما قادم من استانبول والآخر من ارضروم . فلو قال احدهما انسجاماً مع رأي المعتزلة : « لو لم تحضر هنا لما التقينا »، وقال الآخر انسجاماً مع رأي الجبرية : « بل كنا سنلتقي حتى لو لم تحضر ، لان لقاءنا مقدر» ، فكلاهما لاشك مخطئان . اذ توجد واقعة هي الالتقاء ، والحادثة معلومة لله تعالى قبل وقوعها ، فالقَدَر - اذن - التفاؤهما في ذلك المكان والزمان ولا يمكن توقع شيء من امكان التقاؤهما في مكان آخر لو لم يأتيا إلى أنقرة.

كما في المثالين السابقين يعالج مفهوم القَدَر السبب والمسبِّب في حادث اطلاق الرجل النار وموت الآخر كواقعة متلازمة . ثمة واقعة قتل والواقعة في علم الله قبل وقوعها ، عليه فان القَدَر (هو ان احدهما أطلق النار والآخر قتل بسبب ذلك) ، ولو لم يطلق الرجل النار لانعدم

وفقد أحد طرفي الحادث وهو «السبب». وفي هذه الحال لا يمكن توقع اى شيء عن الرجل الثاني . وجريرة القتل في حادث القتل هو تعلقه بفعل القتل ومباشرته ذلك وتسببه في موت انسان رغم تحريم الله تعالى لذلك.

●العلاقة بين العطاء والقضاء والقَدَر :

لله قوانين أو سُنن ثلاث، باسم: العطاء والقضاء والقَدَر . فسُنة العطاء تبطل سُنة القضاء ، وسُنة القضاء تبطل القَدَر .

العطاء : هو ابطال قرار بحق شيء واعفاؤه من وضعه موضع القضاء . ونتذكر عندما نقول عطاء الله : عفو ذلك الرحمن الكريم والغفار الرحيم وفضله واحسانه.

نوضيح تعطيل العطاء للقضاء .. والقضاء للقدر بالمثل الآتي :

لنتصور سلطاناً يمنح عطاءه وعفوه في أيام معينة ، بجانب تطبيق القوانين العامة. في تلك الايام ، يعفو عن قسم من السجناء ويخفف مدد الحبس عن آخرين، ويعلي مقامات ومعايش قسم آخر من رعيته . فهكذا تبطل بالعطاء العقوبات والمقامات والمعاشات المقررة سابقاً بموجب القوانين العامة . لنفرض ان مجرماً قد تقرر الحُكم عليه بعشر

سنوات. ففي حالة العفو عنه بالعطاء لا تنفذ هذه العقوبة، فيَبطُل القضاء بالعطاء وبعدم قضاء العقوبة ، يبطل القَدَر ، أي العقوبة المقدرة جزاء ذنبه.

وكما في المثال السابق ، تبطل العقوبات الأخروية المقدرة على المذنبين جزاء اعمالهم بعطاء الله - أي بعفوه واحسانه ـ ويعطل قضاؤها (تنفيذها) ، وبهذا يَعِل العطاءُ القضاء . ويتعطل القضاء ، بتعطل القَدر أيضاً ، لتبدل الجزاء أو العقوبة.

من جهة اخرى فان العطاء استثناء من شمول القضاء ، اذ تقدر عقوبة ذنب معين بقوانين كلية ، أي ان التقدير القائل : من يقترف ذنباً من نوع كذا فسيعاقب بكذا هو تقدير كلي. فلو تاب القائم بالدنب فغفر له فان ذلك « اخراج من شمول قانون القضاء»، أي: استثناء منه . وتقضي الحال في الوقت نفسه اخراجاً – استثناء – من كلية قانون القَدَر.

ان ما ذكرناه سابقاً يثير في الذهن سؤالاً عن امكانية تغير القَدَر أو تبدله ؟

ونقول بشأن هذه النقطة : ان القَدَر الذي لا يتغير ـ بل من المحال تغيره – هو القَدَر المستند الى العلم الالهي ، وقد تم شرحه سابقاً . وان تطبيقات قانون العطاء – مثلما الحوادث الحاصلة ، أو التي ستحصل ،

منذ الأزل الى الأبد – هي في علمه أيضاً. هذا القَدَر لا يتغير ، بل يحصل التغيير في اللوح المحفوظ . فكم من عقوبة مقررة لذنب ، تغفر بالتوبة وتمحى من اللوح المحفوظ ؟! كما يقول الله تبارك وتعالى: { يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} (الرعد / ٤١)

●الترجيح بلا مرجح :

نشرح هذه المسألة بايجاز لقناعتنا بفائدتها للمهتمين بعلم الكلام.

الترجيح بلا مرجِّح جائز في الامور الإعتبارية ، وهو محال في الأمور الثابتة [١] .

في جملة « الترجيح بلا مرجِّح جائز » المطبقة على الامور الإعتبارية ، كلمة «مرجِّح» – بكسر الجيم – تنصب على « السبب المرجح» ، أو «الوصف المرجح» ، أو «الخصوصية المرجحة» ... أي على تفوق في الصفة [٢].

---

[١] نذكر: ان الامور الإعتبارية؛ هي الحقائق التي ليس لها شكل في الخارج . والامور الثابتة؛ هي التي لها شكل خارجي.

[٢] التفتازاني ، شرح المقاصد .

مثلا : القلم المصنوع من الذهب فيه صفة مرجِّحة على القلم المصنوع من الفضة، ولكن ليس فيه تفوق على قلم ذهبي آخر من النوع نفسه . فلو قلنا ان الترجيح بلا مرجح محال لما استطعنا ترجيح احدهما، بينما في الواقع نختار أحد القلمين رغم تساويهما في الصفات والقيمة بإرادتنا الجزئية . اذن الترجيح بلا مرجِّح جائز هنا وتطبقه دوماً .

اما في الامور الثابتة ، اي الحادثة (أو الظاهرة للوجود) ، فأن كلمة «المرجِّح» تنصب على (السبب المرجِّح او الذات المرجِّحة) للشيء. فالشيء الموجود - اي الحادث - يدل على وجود مرجِّح رجِّح ظهوره الى الوجود (حدوثه) بدلاً من بقائه في العدم ، وظهور الشيء الى الوجود من غير مرجِّح محال . اذن جملة (الترجيح بلا مرجِّح محال) يطبق على هذا النوع . ويمكن أن تصاغ الجملة بصيغة (الترجُّح بلا مرجِّح محال) فيقال عند ترجيح شي أو طرف على آخر انه ظهر إلى الوجود (حدث) لترجحه على الشيء أو الطرف الآخر . هذا الترجَّح محال ان يحدث من غير سبب مرجح أو ذات مرجحة.

قبل توصلنا إلى اتخاذ أي قرار كان بشان فعل شيء أو عدم فعله ، الفعل أو عدم الفعل متساويان ، وعند ترجيح فعل الشيء يكون الفعل قد ترجح . مثلا لو قررنا ان نكتب جملة فقد ترجحت كتابتها على عدم

كتابتها . هذا الترجيح يدل على وجود مرجح ، اي كاتب يرجح الكتابة ولا يمكن ان تظهر الى الوجود بلا مرجح . وبالقياس نفسه ، فان وجود الكائنات يدل على ترجح خلقها على بقائها في طي العدم . ومحال ان يكون هذا الترجح بلا مرجح . وليس ذلك المرجِّح لخلق الكائنات ، ولا يمكن ان يكون ، الا الله العظيم القادر المريد .

تمت بحمد الله

الفهرس

المقدمة

مدخل

القَدَر والقضاء

مسؤولية الإنسان عن الأفعال الإختيارية

الخير والشر من الله تعالى

القَدَر والعدل

أفعال العباد

مذهب الجبرية

مذهب المعتزلة

رأي أهل السنة

مذهب الماتريدية ومذهب الأشعرية

مسائل متفرقة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٤٨٢ لسنة ١٩٨٦

رقم وتاريخ الاجازة ٦٦٤ في ١٨-٦-١٩٨٦